قصص

الآن ناشرون وموزعون

وزارة الثقافة

طبع بدعم من وزارة الثقافة

2021

مجدي دعيبس

ليل طويل.. حياة قصيرة

ليل طويل..

حياة قصيرة

ليل طويل.. حياة قصيرة (قصص)

مجدي دعيبس (كاتب من الأردن)

الطبعة العربية الأولى 2022.

© حقوق الطبع محفوظة بموجب عقد 2022.

الآن ناشرون وموزعون

المدير العام: د. باسم الزعبي

الأردن، عمّان، شارع الملكة رانيا، مجمع المفلح التجاري (87)، ط1. هاتف: 65620722.797162720(962+)
alaan.publish@gmail.com
alaanpublishers.com

لوحة الغلاف: siren of life / **خالد نزار بيروتي**

تصميم الغلاف: **بسام حمدان**

All rights reserved. No part of this book may be reproduced, stored in a retrieval system or transmitted in any form or by any means without prior permission in writing of the publisher.

جميع الحقوق محفوظة. لا يسمح بإعادة إصدار هذا الكتاب أو أيّ جزء منه أو تخزينه في نطاق استعادة المعلومات أو نقله بأيّ شكل من الأشكال، دون إذن خطّي مسبق من الناشر.

ISBN:978-9923-13-420-7

المملكة الأردنية الهاشمية
رقم الإيداع لدى دائرة المكتبة الوطنية
(2514/ 4/ 2021)

813.03

دعيبس، مجدي منير عبدالله

ليل طويل حياة قصيرة/ مجدي منير دعيبس. عمان: الآن ناشرون وموزعون، 2021

(104) ص

ر. إ: 2514/ 4/ 2021

الواصفات: القصص العربية/ / الأدب العربي/ / العصر الحديث

يتحمل المؤلف كامل المسؤولية القانونية عن محتوى مصنفه ولا يعبّر هذا المصنف عن رأي دائرة المكتبة الوطنية أو أي جهة حكومية أخرى

طُبع بدعم من وزارة الثقافة
2021

الآراء الواردة في الكتاب لا تعبّر بالضرورة عن رأي الجهة الداعمة

مجدي دعيبس

ليل طويل..
حياة قصيرة

قصص

إلى كاملة الخوري..

وكأنّ الغياب ما كان

ليل طويل.. حياة قصيرة

الريح تزمجر بين الخيم المتناثرة هنا وهناك. تصارع حتى تبقى واقفة ليوم أو ساعة أخرى. القطط تموء متوجعة وتبحث عن أي حضن أو زاوية تقيها هذا المدّ الكانونيّ الكاسح، لكن لا شيء في تلك البقعة المنبسطة سوى الانجماد والبرد والألم وخيم مكتوب عليها (UNHCR). حبال مترهّلة وأوتاد مترنّحة من السهل اقتلاعها من قِبَل أطفال كانوا يلعبون هنا ذات صيف، ويقفزون بفرح على الرغم من الحرارة والغبار الذي تكدّس على الخيم البيضاء وأحالها إلى لون ترابي باهت. كانوا يتسلّون بالبحث عن العقارب والعناكب السوداء الكبيرة وقتلها. كان هذا عملهم في الصيف حتى أصبح هؤلاء الأطفال جزءًا من دورة حياة هذه الحشرات الزاحفة التي تتسرب إلى الخيم وتتخفّى في كل مكان. ظل الأباء ينبّهون أطفالهم: «لا تناموا قبل أن تنفضوا فراشكم وتتأكدوا من خلوه من العقارب!».

يختلف الأمر كثيرًا في الشتاء؛ لا همّ لهم سوى تدفئة أجسادهم الضئيلة التي ترتجف تحت وطأة الثلج الذي يتكدّس على الخيمة خلال الليل. في الصباح، يشعرون بالبرد يقرص أصابعهم وهم يزيلون طبقات من الزائر الأبيض الذي جثم باستحكام على خيمهم

المتهالكة. عندما يلمحون أي فريق تلفزيوني يزور المخيّم، تأخذهم الإثارة ويتخلّون عن كآبتهم ويبتسمون للكاميرات بشعرهم الطويل وملابسهم الخفيفة ووجوههم الكالحة. المشاهد الذي يتابع التقرير من بيته يدرك أن هؤلاء الأطفال يختلفون عن الذين يصادفهم في الحارة أو الشارع، لكنه لا يعرف وجه هذا الاختلاف؛ لأنه لم يجرب العيش في خيمة صغيرة مع عشرة أطفال وزوجة لم يبقَ من أنوثتها سوى اسم أصابه الكلح بسبب كثرة الاستخدام.

كل شيء تجمّد في المخيم حتى الوقت الذي لا يلتفت لأيٍّ كان تجمّد. أصبحت عقارب الساعة مثل بغل حرون غرس حوافره في الأرض ورفض الانقياد.

«أصبح اللون مختلفًا ومصفرًّا. ماذا سنفعل؟».

«سننتظر ونرى. ربما يشفى من تلقاء نفسه».

«لا أحد يشفى من تلقاء نفسه. ربما يضطرون للأسوأ».

«الأسوأ! ماذا تقصد بالأسوأ؟».

«أنتِ تعرفين جيدًا ما أعني».

«لكنّه ما يزال صغيرًا. أنا لا أفهم هذا الأمر. لماذا يكون الأصغر بينهم الأبعد عني؟ لو كان قريبًا مني مثل السبّابة أو الوسطى لدفّأته.

لماذا لا يشعلون النار في هذه الخيمة اللعينة حتى نتدفأ؟».

«قلتُ لكِ من قبل. سيختنقون ونموت جميعًا».

امتدّ الليل واشتدّ البرد، وأصبح الهواء ثقيلًا جدًّا خاصة عند الأكتاف وأصابع القدمين. هجع الرجل وزوجته وأبناؤه الثمانية. أربعة على يمين الأب وأربعة على يسار الأم. بطّانيات خفيفة لا تردّ صفع البرد المتوحش. إذا كان الجوع كافرًا فالبرد أشدّ كفرًا وأضلّ سبيلًا.

«هيّا انهضوا! حان وقت الرياضة. لا نريد أن نموت ونحن نيام. اصطفوا جيدًا! تحرّكوا بنشاط! للأعلى ثم للأسفل! للأعلى ثم للأسفل! والآن حركة سريعة ومستمرة. أحسنتم. يجب أن نتحرك حتى تتنشط الدورة الدموية ويصل الدم إلينا. نحن أبعد ما نكون عن القلب».

«لماذا لا يشعلون النار في الخيمة؟».

«لا أحد يشعل نارًا داخل خيمة. ناموا الآن! وسأوقظكم بعد ساعة».

انكمشت الخيمة بفعل الفجر الذي ضغط عليها بجليده الحاد والثقيل. كل شيء ساكن في الخيمة. أنفاس ضحلة تتردد بضعف وخوار شديدين.

«ما هذا؟ لماذا لم توقظنا أيّها الإبهام؟ طلع الفجر.. لماذا لا تجيب؟ يا إلهي! ماذا حدث لك؟ تبدو معتمًا جدًّا وأسود».

«آه! لم أعد أشعر بشيء. أظنّ أن الجورب المثقوب هو السبب. الحمد لله على كل حال! الخنصر الصغير شفي من تلقاء نفسه».

«ماذا سيحدث الآن؟».

«لست متأكدًا. ربما يضطرون للأسوأ. نعم، على الأغلب سيلجئون لبتري حتى لا ينتقل إليكم هذا الأمر البغيض».

دخل ثلاثة رجال إلى الخيمة حاملين نقّالة. يرتدون معاطف صوف ثقيلة وفوقها سترة فسفوريّة خفيفة جدًّا وبلا كمّين مكتوب عليها (UNHCR). وضعوا الأب على النقّالة وغطّوا وجهه. كانت الأم تبكي بحرقة. الطفل الأسنّ بينهم شدّ أحد الرجال الثلاثة من سترته الفسفورية.

«لماذا لا تسمحون لنا بإشعال النار في الخيمة؟ أبي مات من شدة البرد بعد أن اسودّتْ أصابع قدميه ولم يعد يشعر بها».

مواطن 2050

كعادته كل صباح خرج من المنزل متأنّقًا. بدلة كحليّة وقميص أبيض وربطة عنق حمراء وحذاء أسود لامع. فتح باب السيّارة، وجلس خلف المقود. لمح عامل الوطن وهو يلمّ النفايات من محيط الحاوية. تعوّد منه إرسال ابتسامات دافئة وتأسيس حالة من الودّ طالما أربكته، لكن الرجل ظل على عبوسه وجدّيّته، ولم يفعل ما كان يفعله كل يوم. مدّ يده إلى جيبه ليعطيه بعض النقود. استغرب ما حدث لاحقًا. استدار العامل ومضى بقصديّة واضحة بعيدًا عنه.

«ربما نظره ضعيف، وربما لا يرغب في الحديث في هذا الوقت المبكر».

عندما وقف عند الإشارة الضوئية، التفت إلى يساره فوجد سيدة جميلة في السيارة المحاذية لسيارته تنظر إليه. شعر ببعض الزهو والفرح. لا يحدث هذا كل يوم. «ربما ألقي عليها تحية الصباح، ونتبادل بعض العبارات الحذرة التي يتداولها الغرباء مع بعضهم بعضًا. قد تكون هناك فرصة لأعرض عليها تبادل الحسابات على الفيسبوك.. لستُ متأكدًا من جدارة هذه الفكرة؛ فأنا لا أحسن التعامل مع الناس». عندما دقّق في وجهها، استنتج أنّ المرأة

ممتعضة، وربما تشعر بالقرف والاشمئزاز. اختفت نظرة الرضا التي ارتسمت على وجهه للحظات، وحلّتْ الخيبة بدلًا منها.

في الشركة لا يخالط الكثيرين؛ يعمل بجدّ ولا ينتبه لما يدور حوله، لكن ما حدث أجبره على الالتفات. شعر أنّهم يتحاشونه، والأسوأ من هذا، أنهم ينظرون إليه ويتهامسون بمن فيهم صبري؛ الفتى الذي يعمل في «الكفتيريا».

«ماذا يحدث؟ لماذا ينظرون إليّ بهذه الطريقة الغريبة؟ هناك شيء غير مفهوم. ما سبب هذا الانقلاب المفاجئ؟ أعرف أنني أختلف عنهم، لكننا توصّلنا إلى اتفاق منذ زمن بعيد؛ اتفاق غير مكتوب وتقيّد كل طرف بتنفيذ الجزء المتعلق به. الحريّة الشخصيّة مصانة ما دامت لا تزعج حريّة الآخرين. لستُ اجتماعيًّا وأحبّذ التّواصل مع الشاشات فائقة الذكاء التي لا تنتقدني بنظراتها الغريبة ولا تضايقني بأسئلتها المحرجة. أنا لا أشبههم لكن هذا لا يعني أنني أستحق هذه المعاملة المزرية. لم أفعل سوءًا».

ذهب إلى دورة المياه حتّى يتفقّد هندامه. وقف أمام المرآة. لم يرَ شيئًا يستحقّ هذا الاستنكار. زادت حيرته. تمنّى لو لديه الجرأة حتّى يتوجّه إلى أحدهم ويسأله مباشرة عن سبب هذا التبدّل المفاجئ. في طريق العودة إلى المنزل، تحاشى النظر في عيون الناس، لكنّه اضطرّ

إلى دخول المركز التجاري لشراء بعض الحوائج. عرف أنهم ينظرون إليه بحدّة فجفّ حلقه وتعرّقت جبهته. وقفت أمامه عجوز تتعكّز على فتى مليح الوجه، بدا أنّه أحد أحفادها. قالت بحدة:

«ألا ترى أنك مختلف عن باقي الناس هنا؟».

ارتبك وزاغت نظراته:

«لستُ متأكدًا، مختلف بأيّ طريقة؟».

«جميعهم يضعون الكمّامة إلّا أنتَ».

«لاحظتُ ذلك، لكنني قدّرتُ الأمر بسبب الأجواء الخماسينية والغبار».

«اليوم هو اليوم العالمي لإحياء ذكرى الذين سقطوا في الحرب الفيروسية بين الصين وأمريكا قبل ثلاثين عامًا. لأول مرة في تاريخ البشرية يخرج الناس بعفويّة إلى الشوارع في القارات الست احتجاجًا على الحروب الخفيّة التي تشنّها الدول العظمى على بعضها بعضًا، ويروح ضحيتها الإنسان البسيط الذي يسعى على رزق أبنائه. في العالم كلّه نضع الكمّامة في هذا اليوم حتى لا ننسى وأيضًا حتى نذكّر حكوماتنا بما حدث. ألم تسمع بهذا الأمر من قبل؟».

أخضر ناصع البياض

كان يجلس على أريكته المفضّلة التي لم يُبْقِ منها الزمن سوى الجلد والعظم. كان يبدو هادئًا جدًّا في خضمّ صخب عائلي لا يُطاق. الأولاد يتقافزون من حوله وكأنهم قرود الشمبانزي في حديقة الحيوان، يدوسونه ويجذبون أكمام بيجامته التي كادت تذوب عند الكوعين والركبتين. يجلس أحدهم على رقبته ويدلّي رجليه الصغيرتين ويتهيأ له أنه يمتطي حصانًا أو حمارًا، وآخر يركض مندفعًا ويحاول تقليد حركات المصارعين عليه. البنات يحاولن تقليد الأولاد بالشقلبة والصراخ. الأم تفضّ شجارًا بدأ يخرج عن السيطرة، ثم توجّه كلامها للبنات حتى يجلسن بهدوء. تذهب إلى المطبخ لتحضر ما تنظف به العصير الذي اندلق على «الصوفا». تعود لتجد الأولاد يتمرجحون بالستائر فتكاد تنخلع من مكانها. تصيح فيهم لكن صياحها يذوب في تفاصيل المشهد المشحون بالحركة والطفولة والقردنة.

كل هذا الحراك والنطنطة وهو جامد مثل تمثال منصوب وسط مدينة لا تنام. سَمِعَتْهُ يتمتم بشيء ما. ظنّتْ أنّهُ على سبيل التأفّف من هذا الضجيج المُضني. لم يعد هناك متسع لحديث كان في ما مضى

من الطقوس اليوميّة التي لا تُفوّتْ. فجأة، جلس الأطفال أمام شاشة التلفاز لمتابعة برنامجهم المفضّل وران صمت جميل في المنزل. شعر بالهدوء وهو يدخل من مسامات جلده ويصل إلى كل خليّة في جسده فتسكن وتسترخي. تذكّر عشقه للموسيقى الكلاسيكيّة، تذكّر افتتانه بموزارت وبمقطوعته الليلية رقم ثلاث عشرة. كان يسمعها دون ملل، ويرقص على أنغامها بحركات ابتكرها لنفسه. شعر بها وهي تمنحه الخفّة والسّمو. تقمّص مشاعر موزارت عندما ألّف هذه المقطوعة الوترية الشعبية الرائعة.

«كم أنت رائع يا موزارت!».

شعر بها وهي تقترب منه. لم ينظر إليها عندما جلست إلى جواره.

«كنتِ تتحدثين كثيرًا عن الألوان في ما مضى. لماذا توقفتِ؟ كنتِ تصنفينها وتضعينها في خانات كثيرة؛ ألوان دافئة وأخرى باردة، ناعمة وخشنة، مقعّرة ومحدّبة، شاحبة ونضرة، كاملة ومنقوصة. أين اختفى كل هذا؟».

فاضت دموعها وهي تنظر إلى لوحتها المعلّقة على الجدار. الشمس والسماء والأفق والفراشات والنهر والوادي؛ كلها مجرد مفردات عابرة لتقديم الكوخ المزروع على قمة جبل شاهق، مدخنة تنفث زفيرها الأسود فيزداد بياض الغيم، أطفال يلعبون في الساحة

الخلفيّة ويقفزون للأعلى للإمساك بغيمة صغيرة غافلت أمها فنزلت لتلعب مع الأولاد. تداخلت الألوان بشكل فريد؛ بياض الغيمة افترش العشب الطري.

«يا إلهي! ما أجمل هذا المشهد! أخضر ناصع البياض. وكأنني أراه لأول مرة، وكأنني لم أرسمه في زمن مضى. كانت أحلامنا بلا لجام مثل أفراس بريّة تركض في فضاء مفتوح فتدوس الاعشاب البريّة فتضوع روائحها، لكن ما أسرع ما تتبدّل الحياة! أحيانًا أسأل نفسي: ما نسبة الذين ينعمون بالحياة التي حلموا بها؟ كم عدد الأشخاص الذين يعيشون شغفهم؟ ربما نحن نأخذ ما تقدّمه لنا الدنيا ولا نملي عليها أهواءنا ورغباتنا، وقد لا تعرض الحياة علينا الكثير من الخيارات. المحظوظ هو من وجد طلبه من بين المعروض في ذلك اليوم. أن ترى الأحلام تتضاءل كل يوم حتى تختفي تمامًا، فهذا بلا شك أمر محزن، وقد يدفع الإنسان إلى حافة الجنون».

انتحبتْ وعلا نشيجها فقام إلى اللوحة وحملها إلى «التّسوية» حيث باقي لوحاتها مركونة إلى الحائط بإهمال وتعلوها سنوات من الغبار والنسيان والعتمة.

الببغاء

كان في السادسة عشرة عندما اتّضحت عليه ملامح الوسامة الصارخة والبهاء، بالإضافة إلى طول القامة والابتسامة الخارقة التي تقتحم أعتى الحصون.

كانت أمه أول من أدرك هذا الجمال الاستثنائي. يوم ولادته أحضرته الممرضة حتى تراه بعد تنظيفه وتقميطه، حدّقتْ به وتصاعدت أنفاسها ثم أشاحت بوجهها عنه. غطّت وجهه وراحت تتمتم بأدعية غير مفهومة. كانت تتحاشى أن يحمله أحد الأقارب والأصدقاء بحجة أنه نائم، وحتى عندما اضطرت لذلك كانت تغطّي نصف وجهه.

«هذا موسم الفيروسات، الأطباء يحذّرون من التنفس بوجه الطفل»، يهزّون رؤوسهم ويبتسمون.

ظلّتْ تعمل جهدها حتى تخفيه عن أعين الناس، وتعلق برقبته التعاويذ والرُّقى التي تطرد العين السوداء والحسد إلى أن نبت شاربه واخشوشن صوته. يكفي أن يغمز إحداهن حتى تبدأ دقّات قلبها بالتسارع فتنقاد له حتى عتبة الباب. يأخذها كما يأخذ الضبع فريسته

غير أن مغارته ليس لها حِنِتْ[1]، فلم يكن هناك مجال للنّجاة. عندما انتهى من المدرسة نقل مغامراته من الحارة والحواري المجاورة إلى الجامعة. كان يتنقّل بين الورود مثل نحلة نشيطة تلمّ الرحيق من كل الزهور. كانت سمعته معروفة لدى الجميع، لكن لم تتردد أيّ منهن بخوض التجربة.

تخرّج في الجامعة ووجد عملًا في قسم العلاقات العامة في شركة ضخمة. كانت السيدة التي قابلته ضمن عشرات المتقدمين للوظيفة قد رسمت على وجهها الجدّ والتّجهم، لكن هذا لم يمنعها من النظر إليه من فوق نظاراتها التي استقرّت على طرف أنفها. ربّما شعرت ببعض التشتت وهو يلسعها بنظرات فاتنة. تبعد نظرها بسرعة، وتعود إلى سيرته الذّاتيّة، التي كلما حاولت قراءتها برزت صورته من بين الأوراق، فتلمع أسنانه وتعشي بصرها. طال الأمر، لكنها نجحت أخيرًا بتتبع الأسطر القليلة التي توزّعتْ على الورقة بشكل متباعد حتى تسوّدها ولا تبدو بيضاء وفارغة.

---

(1) في الموروث الشعبي يقوم الضبع برشق ضحيته بمادة مخدرة فيسلب لبه ويتبعه إلى المغارة، فإذا اصطدم رأسه بالحنت وهو الجزء العلوي من مدخل المغارة يصحو من حالة الذهول التي هو بها وينجو وإلا دخل المغارة ليأكله الضبع. وأيضا يقال أخذه الضبع أي أخذ عقله ولم يعد يدرك ما يفعل .

«للتو تخرجتَ في الجامعة وبدون خبرة. لماذا سأتجاوز الجميع وأختارك أنت؟».

«لأنني أفضل منهم. امنحيني عشرة دقائق وسأقنعك بأن الأرض مكعّبة وليست كروية».

استأجر شقة صغيرة في حي راق وراح يستدرج الجميلات إلى مغارته الجديدة. كان يلتقيهنّ في كل مكان؛ الشارع، السوبرماركت، الإشارة الضوئية، المطعم، المسبح، وكلما وقعتْ عينه على إحداهن تشدّ صدرها للأمام وتنشر شعرها حتى تعبّد له طريق الوصول إليها. يدخل الشقة فيبادره الببغاء.

«أهلًا فارس.. أهلًا فارس!»

تضحك الفتاة بانطلاق. تقف أمام قفصه وتنظر إلى ألوانه البديعة.

«أنا اسمي ليندا».

«أهلا ليندا!.. أهلا ليندا!».

كلما رأها نادى عليها بالطريقة عينها. عندما جاء فارس بفريسته اللاحقة صاح كعادته.

«أهلًا ليندا!.. أهلًا ليندا!».

«مين ليندا؟ أنا سمر».

«أهلًا سمر!.. أهلًا سمر!».

ظل على حاله هذه حتى كان اليوم الذي التقى فيه هدباء. في تلك الأمسية كانت محاطة بالشبان الذين بذلوا كل شيء حتى ماء وجوههم كي تلتفتَ إليهم. قمر بين نجوم خافتة. راقب من بعيد. توزّعُ نظراتها بين الجميع حتى يظن كل واحد منهم أنه قد حاز على إعجابها. اقترب منها وعرض ابتسامته ووجهه وقامته. دقّق بعضلات وجهها لكنه لم يلحظ أي تغيير. يعرف جيدًا تلك النظرة عندما تُعْجبُ الأنثى بذكر. الفتاة لم تلحظ وجوده مما جعله يشعر بالتوتر.

«ربما بسبب الإضاءة الخافتة».

تحرّك إلى الجهة المضيئة لكن شيئًا لم يتغير.

«ماذا يحدث؟ لماذا تتجاهلني هذه الجميلة؟».

أول مرة تصادفه هكذا حالة. انتظر حتى يخفّ الذباب من حولها لكنّ الأمر ظلّ على حاله حتى انتهت السهرة وغادر الجميع. سأل عنها فعرف اسمها ومكان عملها. روز وتعمل في السفارة الألمانية. عرف الأماكن والمقاهي التي تتردد عليها. انتظرها في مقهى «القمر». دخلتْ وجلستْ إلى إحدى الطاولات. توجّه إليها بثقة. وقف أمامها وابتسم ابتسامة عريضة.

«اسمي فارس».

سحب الكرسي وجلس. ابتسمتْ ابتسامة مزعجة.

«أنتظرُ أحدهم وسيصل بعد قليل. لا أظنّ أنه من اللائق أن يصل ويجدك تجلس معي».

«لستُ متأكدًا إن كان ما تقولينه صحيحًا، أم هو مجرد عذر تستخدمينه لطرد الشباب الذين يزعجونك طوال الوقت. إذا كان الأمر كذلك، فتأكدي أنّه لا ينفع معي. أنا لا أستسلم بسهولة».

ظلّ يلاحقها لأسابيع تلت. أينما ذهبت تجده أمامها. أخيرًا رضخت لإلحاحه. بعد شهر من الخروج والسهر معا اقترح عليها أن تنتقل إلى شقته فوافقتْ. قال:

«مدير الشركة سيسافر إلى إسبانيا في زيارة عمل ويريدني أن أرافقه. حاولتُ التّملّص لكنه مصرّ. سأغيب أسبوعين. سأشتاق إليك كثيرًا». عانقها بحرارة ثم نظر إلى عينيها وتاه في تلك الزرقة الناعمَة.

كان يهاتفها كل ليلة.

«لا أعرف لماذا تمرّ الأيام بطيئة ثقيلة هنا، لم أتوقع أنني سأحب بهذه الطريقة في يوم من الأيام. كنت في ما مضى أسخر من هذا الذي يدعونه الحب. كنت أقول هو مجرد عنوان أنيق لمحتوى فاسد فيه

من الشهوة والرغبة الجامحة التي تعصف بجسم الإنسان. ما أسرع ما يتبدّل الإنسان! ها هو يمسح بمجامع قلبي، فلا تبقى فرصة للإفلات منه أو التّخلّص من سطوته. هذا شعور يتجبّر بصاحبه فيرضخ له صاغرًا صادعًا. قد يبدو غريبًا حديثي وأنا أشبّه الحب بوحش ضار يفتك بالمحبّين، لكنّه بواقع الحال فتك جميل ولذيذ يشبه طعم «الشوكولاتة» التي تجلب الشعور باللذة والرضا لكنّها بالمقابل تفتك بأسنان الصغار وصحة الكبار. لا أمانع أن يقتلني هذا الشعور الغامر كل يوم. أن يحاول الإنسان وصف الحب فهذا أمر محال لأنه يبدأ بخفقة قلب مختلفة، ثم تتسارع المشاعر مثل كرة الثلج التي تتضخّم وتبتلع كل ما في طريقها من أحاسيس لتذوب وتتركز في شخص المحبوب. كيف لهذا الحب أن يبطش بشخص قوي وناضج بطرفة عين؟ كيف؟».

قالت: «لم يبقَ سوى يومين. على أي حال، لدي عمل هام غدًا، يجب أن أنام حتى أكون نشيطة في الصباح. تصبح على خير حبيبي».

كان فرحًا بعودته. أحضر لها هدية باهظة الثمن. كانت قدماه بالكاد تلامسان الدرج الذي يقود إلى شقته. حَضَنَها بحنان ولهفة واشتمّ رائحتها فداخ وغاب في تضاعيف شعرها الأشقر الداكن حتى إنه لم ينتبه للببغاء وهو يردد:

«أهلًا مازن!.. أهلًا مازن!».

حالة

كان يركض نحو خط النهاية بخطوات واسعة ومتلاحقة. ينظر من فوق كتفه الأيمن أحيانًا حتى يتيقّن أنه ما زال يحتفظ بمسافة مريحة بينه وبين المتسابقين الآخرين. ينظّم أنفاسه ويحافظ على مستوى عال من التركيز. لم يبقَ أمامه سوى بضع خطوات وينتهي كل شيء. يرى خط النهاية بوضوح الآن. حماس المشجعين يصل إلى حدّه الأقصى. يرفعون الأعلام ويلوّحون بأيديهم ويهتفون بأشد ما لديهم من قوة حتى تنتفخ حناجرهم. فجأة تنشقّ الأرض وتظهر هوة عميقة. لا يستطيع التوقف لتفاديها بسبب سرعته فيسقط فيها. يصرخ ويصرخ وهو يهوي إلى القاع الذي لا قرار له. يشعر بالضيق والخوف والعجز. ينتفض في فراشه ويفتح عينيه مذعورًا وعرقه يبلل رقبته وجبينه.

«بسم الله الرحمن الرحيم. ما هذا الكابوس! الله يرحمنا برحمته!».

في صباح اليوم التالي كان شاحبًا ومنزعجًا. جلس معها إلى مائدة الإفطار لكنه لم يمدّ يده بل وضع مرفقيه على الطاولة ورمشت عيناه بانتظام. بالعادة تكون شهيته للحديث إلى الحد الذي يزعجها

وخاصة في الصباح. صمته وسكونه مريبان. يقلقها تغيّر عاداته حتى لو كانت عادات سيئة وبغيضة. قالت زوجته بسخرية حتى تدفعه للحديث:

«كل يوم تقول إن وجبة الصباح أهم وجبة، أم نسيت ما تكرّره بلا كلل».

نظر إليها بطرف عينه دون أن يلتفت إليها. تمتم بشيء غير مفهوم، ثمّ مدّ يده إلى فنجان القهوة. ارتشف رشفة كبيرة دون أن يتبيّن مدى سخونتها فحرقت فمه. تقلّصتْ عضلات وجهه وأغمض عينيه بشدة ثم أخذ نفسًا عميقًا وزفر الهواء بتمهل رغم ألمه.

تباطأ بالخروج إلى العمل وجلس وراء مكتبه الأنيق من خشب المهاجوني. يعجبه لونه وملمسه. يتناول سيجارًا من العلبة الخشبية التي أمامه، يشتمّ رائحته ثم يشعله. يسحب نفسًا بشغف المحروم، ثم ينفث الدّخّان الدّاكن الذي يتصاعد ليشكلّ لوحة تجريديّة باهيّة. لطالما جلس هنا ساعات طويلة من الليل، يراجع البيانات ويدرس الاحتمالات ويتّخذ القرارات المهمة التي تتعلق بالسياسة العامة لشركاته. يؤمن بالاجتهاد والعمل والبحث عن الفرص الصغيرة التي يمكن أن تتحول إلى فرصة عملاقة تدرّ الربح الوفير. مقولته المفضلة «السوق ما برحم». سألَتْهُ بشكل مباشر:

«ماذا حدث حتى تكون بهذا الوجوم والقلق؟ أهممتني يا رجل. قل ماذا هناك؟ أيتعلق الأمر بالعمل؟».

اعترف لها بالكابوس الذي يراوده منذ أسابيع حتى بات يخاف النوم. كادت تضحك لكنها أحجمت في اللحظة الأخيرة بسبب حساسية الموقف بالنسبة له على الأقل. قالت على سبيل التخفيف من حدة توتره:

«هذا الحلم تحذير لك من أمر أنت مقبل عليه».

انصرفتْ إلى المطبخ وتركته يضرب أخماسًا بأسداس.

«ماذا يعني هذا؟ يمكن أن يكون كلامها صحيحًا. نخطط في الشركة لبيع مجموعة من المشاريع الخاسرة قبل أن تتضاعف خسارتنا. ربما يجب أن نؤجل هذا الأمر حتى يتحسّن السوق قليلًا».

رفض كل النصائح التي قدّمها له الدّاني والقاصي. أصابته حالة من الخذلان الشديد. لم يخذله أحد من الموظفين أو الأصدقاء، بل هو من خذل نفسه وصمم على موقفه هذا حتّى صار ما توقعه الجميع. السوق حسّاس للشائعات والأقاويل التي توفّر تربة خصبة للتأويل والاجتهاد الذي قد يتحوّل إلى قناعة عامة تدمّر صاحب العمل في نوبة حادة من الجنون النزق. بعد أشهر قليلة ذاع الخبر بسرعة وتصدّرتْ صوره الصفحات الأولى في الجرائد.

«كامل الحريص يُشهر إفلاسه بعد أن هبطت أسهم شركاته إلى الحضيض». وفي عنوان آخر:

«الحرص لم يُفد الحريص. خسر كل شيء ولم يعد يملك حتى البدلات الفاخرة التي كان يتأنّق بها».

وعنوان آخر يقول:

«تعاونت عليه كان وأخواتها حتى انزلق إلى هذا الدرك الغريب.. نهاية رجل الأعمال المعروف كامل الحريص».

تحوّل إفلاس الحريص إلى «حالة»، ومادة إعلاميّة دسمة شغلت الرأي العام. لم يبقَ أحد إلّا وأدلى بدلوه في هذه القضية بحثًا وتحليلًا وتفسيرًا. إحدى الفضائيات استضافت طبيبًا نفسيًّا للحديث في هذا الشأن.

سألت المذيعة: «ما معنى ما حدث؟ كيف لرجل أعمال مثله أن يسقط هذه السقطة الشنيعة؟ التفسير المباشر غير مقنع، علم النفس قد يساعد في تفسير بعض الأمور التي لا تظهر لنا وتحتاج للغوص في العقل الباطن حتى نجد ما قد يدفع الإنسان لهذه التصرفات الغريبة. هل كان يشعر بالاكتئاب الحاد، ولم يدرك من حوله هذا الأمر؟ أم ماذا؟».

«هذا الأمر بالنسبة لي أشبه ما يكون بموجات الانتحار الجماعي

للدلافين. لا أحد يعرف سبب انتحار الحيتان على وجه اليقين. هل ضلّت طريقها؟ هل هو اليأس؟ أم الخوف أم القلق أم الغربة أم الهرب من شيء أسوأ من الموت نفسه؟ لا أحد يعرف على وجه اليقين».

الموظف الذي فقد رائحته

بحثَتْ في الأمر طويلًا وقرأت عنه كثيرًا حتى وصلَتْ إلى قناعة راسخة بأنّه يُعدّ من القدرات الخاصة أو القدرات التي تفوق المستوى المعروف عند باقي الناس. أزعجها في البداية ثم وجدت الأمر مسليًّا. قدرة الشم لديها تكاد تضاهي ما تتمتع بها بعض الحيوانات التي تعتمد على هذه الحاسّة للدفاع عن نفسها والتّربّص بطرائدها من خلال رصد روائحها.

تستطيع أن تعرف أشياء كثيرة عن الشخص الذي أمامها من خلال رائحته أو رائحتها. تميّز الحائض والمرأة التي تكون على استعداد لملاطفة عشيرها، كما تعرف أن الرجل متوتر أو مكتئب من رائحته أيضًا. تضطرّ أحيانًا للاقتراب أكثر من اللازم من زميلاتها أو زملائها لتشتمّهم وتقرر ما تفعل أو ما تقول. كانوا يستغربون منها لطافتها وحلاوة حديثها، ولم يعلموا أنها ترصد حالتهم النفسية قبل أن تُباشر بطلبها أو تعليقها أو ردة فعلها. تلقي دعابة عندما تدرك أن محدثها يشعر بالانطلاق وتتوفر لديه رغبة بالضحك والدخول في أجواء المرح والخفّة. تصمت عندما يكون أحدهم غاضبًا أو متكدّرًا وتتحاشاه قدر الإمكان. تحاول أن تخفّف عن الزميلة التي نغّص

عليها زوجها يومها قبل أن تخرج إلى العمل بسبب المصروف، وتعرض المساعدة على من يحتاجها.

كل شيء كان في متناول حواسها حتى كان يوم ونُقل إلى الدائرة موظف جديد. أبو حاتم؛ في منتصف عقده الخامس، لكن هيئته المترهلة توحي بأنه قد جاوز الستين على الرغم من بقية وسامة ظلّتْ عالقة بوجهه وتقاسيمه. رحّبوا به وتبادلوا معه أحاديث شتّى قبل أن ينصرفوا لعملهم. عندما جلستْ خلف مكتبها تذكرت أمرًا مريبًا. في اليوم التّالي أحضرت له فنجانًا من القهوة على سبيل التّرحيب بالزميل الجديد. اقتربت منه وهي تضع الفنجان على الطاولة إلى الحد الذي يمكّنها من التقاط أي رائحة حتى لو كانت ضئيلة جدًّا.

«ماذا يحدث أين ذهبت رائحة هذا الرجل؟ غير ممكن. هناك خطأ ما».

بعد تفكير طويل، حدّثتْ نفسها:

«ربّما حدث هذا الأمر في السابق، ولكن في اليوم التالي كانت الرائحة موجودة وظاهرة. سأنتظر للغد وأرى ما يكون».

كادت تُجن عندما لم تشتمّ رائحته في اليوم التالي أو الذي يليه. في البداية ظنّتْ أنها بدأت تفقد هذه القدرة لكنها ظلت تعمل بفاعلية مع

الآخرين. لماذا لا تعمل معه هو بالذّات؟ حيّرها هذا الأمر كثيرًا. خرجتْ من دوّامة أفكارها عندما سمعتْ زميلاتها في المكتب يتحدثن:

«مسكين زميلنا أبو حاتم. أحواله صعبة جدًّا. الله يكون بعونه. عائلة كبيرة من أطفاله السبعة وأمّه وشقيقتين- فاتهما قطار الزواج- يعيشون في شقة صغيرة ومتهالكة. في الشتاء الماضي داهمتهم الأمطار والطين وتلف الأثاث وحوائج المنزل الأخرى. إحدى بناته تعاني من الشلل وتحتاج لمساعدة أمها في الذهاب إلى الحمّام لقضاء الحاجة. أولاده ما زالوا صغارًا ولا أحد يعينه على تكاليف هذه الدنيا و.. و..».

رفعت رأسها للأعلى وحدّثتْ نفسها:

«ربما هذا يفسر الأمر. الرجل يعاني من تجبّر الدنيا التي أثقلت عليه إلى الدرجة التي فقد معها أي شعور أو تفاعل مع مصائبها التي لا تنتهي، فظلّ هادئًا ساكنًا بلا رائحة».

تعهد خطي

عندما فعلها للمرة الأولى كانت لمجرد التسلية وتمضية الوقت ثم تحوّل الأمر إلى شيء آخر مختلف تمامًا. موظف في وزارة «الرفاه ورغد العيش» منذ عشرين عامًا، وكل مرة يتم تجاوزه بالتّرقية ويبقى راتبه على حاله، بل يتناقص ويتآكل بفعل غلاء الأسعار وتضخّم متطلبات العائلة واحتياجاتها. كلما راجع مديره بخصوص الترقية قال له:

«يا أستاذ صابر! لازم تنجح في امتحان الترفيع للدرجة، في قوانين ولوائح يجب التقيد بها».

عندما يصل الحديث إلى هذه المرحلة يكرر الأستاذ صابر الخمسيني ذو الجبين المتغضّن تظلّمه من أن الامتحان باللغة الإنجليزية- التي لا يعرف منها شيئًا- والتي يعزو إليها عدم نجاحه في الامتحان، وليس قلة معرفته الفنيّة أو كفاءته المهنيّة. عندها يهزّ المدير رأسه يمنة ويسرة ويقول:

«هناك مراسلات مع مؤسسات دوليّة تتطلّب الإحاطة والإلمام باللغة الإنجليزية، لا تستطيع أن تكون رئيس قسم دون اجتياز

الامتحان الذي يقيس مقدرتك على فهم المراسلات الإلكترونيّة والردّ عليها».

تزداد ملامح الإحباط على وجه الأستاذ صابر وينكمش جسمه داخل البدلة السوداء التي بهت لونها وبات غير واضح المعالم. يعود إلى مكتبه ويبدأ بحرق السجائر الواحدة تلو الأخرى حتى يضيق صدره وتصبح نوبات السعال متتالية وبدون انقطاع.

بعد أن ينهي عمله يمر بالمركز التجاري ويظل يدور فيه حتى تؤلمه قدماه. يراقب الناس ويدقّق بوجوههم وكأنّه يبحث عن أحدهم. يفتش عن وجه يشبه وجهه وعن بدلة تشبه بدلته. يريد أن يثبت لنفسه أنه ما زال داخل الزمن ولم يتحوّل إلى مستحاثّة عمرها آلاف السنين. يتجوّل داخل المركز التجاري حتى يهدّه التعب ليعود إلى المنزل وينام بعمق مثل طفل صغير.

تقافزت الأفكار السوداء إلى مخيلتها وهي في طريقها إلى المركز التجاري.

«ماذا حدث؟ هل أصيب بعارض صحيّ مفاجئ؟ لم أسمعه يشكو من شيء ما مؤخرًا. قالوا لي على الهاتف إنّ الأمر طارئ ويتعلق بصابر؛ زوجي. ماذا كان يفعل هناك؟ لا يملك نقودًا حتى يبتاع ولو علبة سجائر. الأمر محير».

كان وجهها مثل غيمة داكنة اللون عندما أدخلوها إلى مكتب مدير المركز التجاري. زوجها يجلس على كنبة مريحة وواسعة لطالما تمنّتْ أن تقتني مثلها لغرفة الجلوس التي بات أثاثها متهالكًا مثل تسعينية لم تُبقِ منها الأيام سوى جلد مترهل وعظم مترقّق. وقف المدير وأشار إليها حتى تجلس على الكنبة المقابلة لزوجها. تسمّر نظره بالأرض ومعالم وجهه تفشي بأمر خطير وكأنه طفل يغطي وجهه بثوب أمه حتى لا يري نظرات الاستنكار واللوم في عيون الآخرين. حاولت أن تستحثّه حتى يرسل نظرة أو إشارة أو حتى تنهيدة تكشف شيئًا من هذه الأحجية المحيّرة. كان هناك شخصان آخران في المكتب. بدا أنهما من موظفي المركز. وقفا رغم وجود كنب شاغر. المدير يرتدي بدلة أنيقة جدًّا وباهظة الثمن على الأغلب. يضع خواتم عدة في أصابعه، للحظة تساءلتْ الزوجة عن ثمنها، ثم صرفت عنها هذه الأفكار الناشزة ونظرت إلى وجهه فبدا لها وكأنه يتصنّع الجدّ، فهو أبيض ممتلئ وبشوش ولم تنل منه تصاريف الحياة حتى يغيّر من فطرته وطبعه المرح. قال بصوت ناعم:

«متأسف جدا على إزعاجك واستدعائك بهذه الطريقة لكن هناك موضوع بحاجة للبحث».

قالت بقلق وتوتر:

«أي موضوع؟».

«الحقيقة، كل شيء موثّق بالكاميرات والتواريخ ولا نريد أن نُحدث ضجّة في حين يمكن معالجة الأمر بهدوء وروية».

استبدّ بها القلق وكادت تصرخ بوجهه حتى يفصح عن هذا الأمر الغامض. قال أحد الموظفين:

«هناك من يدخل إلى المركز التجاري ويعبّئ عربة تسوق كبيرة بالمشتريات ثم يركنها جانبا ويغادر. يحدث أحيانًا أن أحد الزبائن يتفطّن في اللحظة الأخيرة إلى أنه قد نسي محفظته في المنزل فيترك العربة ويغادر ليعود بعد بعض الوقت».

قالت بلهجة مستنكرة:

«وما علاقة هذا بزوجي؟».

قال المدير:

«زوجك يا سيدتي أحد هؤلاء الأشخاص، يأتي كل يوم ويقوم بالفعل عينه». نظر إليها فأدرك أنها لم تفهم تمامًا ما يقول. تابع حديثه:

«يمكن أن أعرض عليك تسجيلات الكاميرا إذا رغبت». نظرت

إلى زوجها باستنكار بالغ. قالت:

«صابر! .. لماذا تفعل هذا؟». أجاب المدير على تساؤلها:

«لا تقلقي! ليس شيئًا خطيرًا وأفضل شيء هو المواجهة بحضور الأهل والأقارب، وهذا كان كافيًا في حالات كثيرة حتى يتوقف هذا التصرف. نحن كأصحاب مراكز تجارية ندرك الأسباب أو الظروف المؤدية له، وهي على الأغلب متعلقة بعدم القدرة على الشراء الحقيقي بسبب الأوضاع الاقتصادية الصعبة، فيلجأ إلى التسوق الوهمي الذي يجلب له المتعة والشعور بالرضا. يظن أنه أصبح فردًا من مجتمع أو طبقة ما. هو نوع من التّمرّد على الواقع الذي يختبره كل يوم ولا يقبله. يعيش اللحظة وكأنها تحدث فعلًا حتى إنه يمكن أن يطلب مساعدة الموظف ليبيّن له الفرق بين منتجين تحيّر بينهما، ويمكن أيضًا أن يبدأ نقاشًا مع إحدى المتسوقات حول منتج ما، ويشرح لها عن تجربته الخاصة معه ويغدق عليها النصائح والاقتراحات. يبدأ الأمر على سبيل التسلية وينتهي بإدمان يعيق عملنا ويزيد من أعباء موظفينا. سيدتي.. لا أريد أن أطيل عليك. لدينا إجراء متبع في هذه الحالة وهو التوقيع على تعهد خطي بعدم تكرار هذا الفعل مجددًا وإلا اضطرّ رجال الأمن في المركز للتعامل معه بطريقة مختلفة. أنا متأكد أنك لا تريدين الوصول إلى هذه المرحلة».

نظرتْ إلى وجه زوجها فوجدته ممتقعًا. أدركتْ مدى الذل الذي يتعرض له في هذا الموقف المهين. استفاقت الروح المتمردة التي سكنتها في شبابها قبل أن تستسلم إلى نكد الدنيا ومرارة الأيام. وقفت مستنفرة وكأنها الرعد الذي هزّ أرجاء المعمورة ومدت سبابتها بوجه المدير:

«أنتم لا تدركون معاناة الناس البسطاء؛ لأنكم ولدتم في فيلا كبيرة مدفّأة. ماذا تعرفون عن البيوت الباردة والرطبة؟ ماذا تعرفون عن أسطوانة الغاز التي يتقافز الأطفال فرحًا عندما تدخل المنزل، وكأنها أختهم التي تعود بعد غياب طويل؟ كان بإمكانكم التّعامل مع الأمر دون إقحامي وتعريضه للمهانة أمامي لكنكم غير معنيين بمشاعره، أنتم معنيون فقط بالتجارة والربح والخسارة.. صابر! انهض! لن نوقّع على هذا التعهد المذل، وافعلوا ما يحلو لكم!».

حرب داحس والغبراء الثانية

كان يومًا جميلًا وباهيًا، ارتفعت الشمس فوق خط الأفق وتوسطت عرض السماء بدون أن تعيث في الأرض هجيرًا وحمأة، حتى إنها رأفت بمن تجرّأ ونظر إليها بطرف عينه ولم تعشِ بصره كعادتها مع المغامرين وشذّاذ الأفاق. كانت متسامحة ودمثة أكثر مما يُشهد لها وخاصة في فصلها الأثير؛ الصيف. في ذلك اليوم اهتدى الحظ إليه وفتحت السماء كل الأبواب أمامه، في تلك الساعة كان سلطان الحظ يمشي في ركابه، أهمل الكون وانحاز له كليّةً. في تلك اللحظة خذل الحظ كل الناس ولم يلبِ تضرعات من وقفوا عند خط النهاية بلهفة وترقّب، بل انشغل بالسّجّاد الأحمر الذي فرشه أمام حمدي المهماز؛ الخمسيني النحيل ورب الأسرة المكونة من عشرة أفراد. كلحت ابتسامته من زمن بعيد وانقطع بريق عينيه الذي كان سببًا لقبول زوجته الاقتران به. قالوا لها:

«معلم مدرسة ودخله محدود، لن تجدي عنده سوى الهمّ والطّفر».

لم تكترث لهم، ولم تعدْ كلماتهم التي كرّروها مرارًا سوى

أصوات بلا معنى محدد. قالت:

«المال ليس كل شيء».

بعد الطفل الثالث عرفت أن المال مثل الشمس؛ حضورها يصنع الصيف والربيع وترددها يعني الخريف، أما غيابها فهو الشتاء البارد والموجع. أصبحتْ أوضاعه مثل الثوب البالي؛ ما إن يُرتق في مكان حتى ينخرق ويتهتك في مكان آخر، فلم يعد أحد يتذكّر لونه الذي كان عليه عندما كان بكامل صحته وعنفوانه.

كان يهمل الأرقام غير المعرّفة على هاتفه النّقّال ويردّد كلما تكرّر الأمر:

«أنا ناقصني هَم.. ماذا سيكون من هذا الاتصال؟ لن يكون البنك الذي سيزف لي خبر حصولي على الجائزة الأولى». يبتسم بخفة ثم يتابع: «من الأكيد أنّه لن يتّصل؛ فليس لدي أي حساب بنكي».

لكنّه بالمقابل ظلّ متمسّكًا بفكرة أنه سيفوز بالجائزة الأولى لليانصيب الخيري، ولم يتخلَّ عنها على الرغم من مرور السنين تباعًا دون أن يفوز حتى بجائزة ترضية. كانت زوجته تكرر:

«لا تبذّر هذه الدنانير على شيء لن يحدث، نحن بحاجة لكل قرش، حتى لو ربحت الجائزة في نهاية الأمر ستكون فقط قد أعدت

رأس المال المستثمر في هذا المشروع الفاشل».

لم يعترفْ لها أبدًا بسبب تمسّكه بهذا الهاجس. لم يذكر لها ما كانت أمّه تقول وهو فتى صغير.

«مرزوق يا ولدي، ورزقك على جبينك مكتوب». كان يؤمن بمقولة أمه حتى النخاع. «أمي امرأة بارّة وترى ما لا يراه الناس، لا بدّ أن يأتي الحظ ولو مرة واحدة».

عندما وقف أمام لوحة الأرقام الفائزة بالسّحب، تعلّق نظره بالرقم الفائز بالجائزة الأولى. لم يجرؤ على النظر إلى ورقته، شعور غامر استولى عليه، إنه الرقم عينه، لكنّه لا يستطيع الإفلات من سطوة هذا الشعور. انساحت دموع عينيه بصمت وغزارة، قال بصوت مخنوق:

«الله يرحمك يا أمي! الله يرحمك يا أمي!».

عندما حمل الخبر السعيد إلى زوجته قفزت للأعلى وكأنها مقذوف انطلق في سماء نهمة لا سقف لها.

انقلبت أحوالهم حتّى ما عادوا يعرفون أنفسهم؛ الشقة الجديدة، السيارة، الملابس، الطعام وحتى الأصدقاء طالهم التغيير والتبديل. لأول مرة في حياته يتخلّص من لعنة الراتب الذي ينتهي بعد الأسبوع الأول، لتبدأ رحلة المعاناة مع الأرقام والحسابات وتأخير هذه وتقديم تلك.

مع هذا التغيير الفاحش أصبحت حواسه أكثر التقاطًا لما يجري في محيطه، وأكثر اتصالًا به بعد أن ظلّ لسنوات طويلة محبوسًا داخل أفكاره ومشاكله المادية التي لا تنتهي. ارتاحت تقاسيم وجهه وأصبحت نظراته أكثر تركيزًا وأقل تشتتًا. أصبح مثل وردة حمراء تفتّحتْ على صباح نديّ فائض النداوة، وحلم صيف باذخ لا يرتجي الحالم منه سوى أن يطول ويطول.

عندما كان عائدًا من السوق، سمع ضجيجًا عاليًا في شقته فأسرع حتى يعرف ما يحصل. توقّع الأسوء. خفق قلبه بشدّة. ربما حصل مكروه لأحد أبنائه أو بناته. دخل عليهم فوجدهم محدّقين بالشّاشة الكبيرة وقد انقسموا إلى مجموعتين؛ على يمين ويسار الشّاشة. كانت مباراة كرة قدم. قال بصوت معتدل بعد أن تلاشت أفكاره السوداء:

«ما هذا؟ لمَ كل هذا الضجيج؟». أجاب أصغر أبنائه، عامر:

«هذا الكلاسيكو يا بابا».

«الكلاسيكو!؟ ما هو الكلاسيكو؟».

«الكلاسيكو يعني ريال مدريد وبرشلونة. أرجوك بابا! شجّع ريال مدريد معنا. نحن أربعة وهم خمسة». سأل باستنكار:

«لكن.. لمَ كل هذا الاهتمام والتّحفّز؟ هي مجرد مباراة». رد عليه منهل، أكبر أبنائه:

«كرة القدم.. خبز الفقراء يا أبي». قالت شقيقته منى- والتي تصغره بسنة واحدة- بحدة واضحة:

«سد حلقك! لسنا فقراء. نحن نتعشى سلمون مشوي والفقراء يتعشون قلّاية بندورة».

دخل إلى غرفته وأغلق الباب بالمفتاح. فكر طويلًا بما قاله منهل؛ خبز الفقراء. تساءل:

«ما الذي يقصده بقوله هذا؟ أين كان هذا الخبز عندما كنت أنام ومعدتي تزمجر مثل أسد هصور؟».

بعد حين اكتشف أنه متأخر عن العالم لأكثر من ثلاثين عامًا، وأن هذا العالم منقسم بين ريال مدريد وبرشلونة وليس عائلته فقط، وأن هذا الانقسام أو التّكتّل لا يخلو من عدائيّة كامنة في النفوس، وكيل اتهامات وشتائم وتعسّف. حاول أن يحلّل الأمر، فكّر:

«مع سقوط جدار برلين سقطت معه الحرب الباردة بين المعسكرين؛ الغربي والشرقي، ولم يكن هذا مرضيًا للكثير من الناس فأنشأوا حربًا باردة جديدة حتى يتسلوا بها وأطلقوا عليها اسم

(الكلاسيكو). الجديد في هذه الحرب هو أن الشعوب أكثر انخراطًا بها من الدول، وهي لا تختلف كثيرًا عن أيام العرب في الجاهلية مثل حرب داحس والغبراء التي كان التّعصب الأعمى والكبرياء وقصور الرؤية من أسباب النزاع الذي أفنى شباب القبيلتين فيهما. كان رهانًا على سباق خيل وتحوّل إلى حرب طويلة، والآن لعبة جماعيّة أصبحت بسبب الغلو ساحة للتناحر والاقتتال رغم تباين المنظومات الثقافيّة في الحالين».

في البداية رفض الانجرار إلى هذه الحرب واعتبر الأمر من باب الغلو والتّطرف الرياضيّ الذي لا يختلف عن أي نوع آخر من الراديكالية والتّشدّد، لكن بعد حين وتحت إلحاح ابنه عامر قَبِل أن يجلس مع مجموعة ريال مدريد ويلبس قميصهم ويهتف مع الهاتفين. بعد شيء من الوقت أصبح لديه معلومات وافية عن أصل الصراع وأسبابه وحفظ الأسماء والتّواريخ والوقائع والإحصائيات. كل هذا بجهود أبنائه وبناته من معسكر (الريال) الذين ظلوا ينقلون إليه شغفهم وهوسهم جرعة جرعة حتى أمسى أكثر إيمانًا منهم بعدالة قضية (الفريق الملكي).

كانت لحظة فظيعة؛ زلزلتْ العائلة وقوّضتْ أساساتها. لم يعد هناك ما يقال. فقط ذهول وأنفاس محبوسة ونظرات جامدة.

استعدّ الفريقان واتّخذ كل واحد موقعه ولباسه أمام الشّاشة الكبيرة. الفائز في هذه المباراة سيحصل على النقاط الثلاث ولقب الدوري الإسباني. كانت المباراة ندّيّة وسريعة، هجمة للكتالونيين وهجمة مقابلة للمدريديين وظلّتْ الشباك نظيفة حتى كانت الدقيقة الأخيرة من المباراة. هجمة مباغتة وسريعة لبرشلونة أدت إلى هدف قاتل. انتفضت المجموعة التي تشجع برشلونة بمن فيهم زوجته التي أخذت ترقص وتصيح فرحًا وشماتة بزوجها وفريقه. وقف على قدميه وقد جحظت عيناه وانتفخ صدره غيظًا وكمدًا. شعر أن بركانًا ما بداخله- قد نسيه التاريخ وأغفلته الجغرافيا- سينفجر في أي لحظة. مدّ سبّابته نحوها وصاح بصوت علا فوق ضجيجهم:

«أنتِ طالق.. طالق.. طالق».

خُرُجْ تين

«قصة من أدب الجدّات»

يُحكى أنّ قبيلةً كانت تعيش في سهل ممتد وخصب، يتخلّله نهر متعرج دأب منذ الأزل على جرّ التربة الحمراء من الجبال البعيدة ذات الرؤوس الثّلجيّة إلى هذه البقعة على حافة الصحراء الغارقة في رمالها الساخنة. شمس الصباح تظهر من خلف التلال اللينة جهة الشرق. تحرّك عجلة الحياة وتمدّ الجميع بالأمل والحب والدفء. النساء يلبسن الأثواب المزركشة والمطرزة بألوان باهية، فتبدو وكأنها ضفتي واد عريض سالت مياهه في الشتاء، ثم جاء الربيع بألوانه الزاهية ليعلن انتصار فصل الجمال والحب. الصغيرات يركضن في حقل يزخر بالورود. يطلقن شعورهن للهواء فيلامس الأزهار ويأخذ من رحيقها حتى يتضمّخ برائحة تدوّخ الصبيان. الرجال وجوههم سمحة وأياديهم مبسوطة. يدعون في صلاتهم شيوخًا وشبابًا:

«يا إله الخصب! اجعل مقامك بيننا!».

ظلّوا يتوارثون هذه الأرض حتى باتوا يمشون على رفات أجدادهم وأجداد أجدادهم الذين عمّروا هذا المكان وأطلقوا عليه

اسم «خُرُجْ تين»، وتعني باللغة القديمة الأرض التي أنبتت التين. ظلّتْ السنوات تمدّ في عمر الناس حتّى ظنّوا أن الأرض مقدّسة وتبارك بعمر أهلها فتثمر أعوامًا طويلة. وظلّ التراب الأحمر يستقبل الحَبَّ والزرع من أي نوع فينبت فيه ويعلو فوق هامة الرجل حتى قال الحكيم منهم: لو بذرنا الأرض حصى وحجارة لأنبتت قصورًا وقلاعًا.

حتى كان يوم ودخل القبيلة رجل وامرأته العاقر فتغيّر كل شيء. كان شعره مجعّدًا لا مسترسلًا كشعر رجال السهل، وزوجته كانت قصيرة وأقرب إلى الدّمامة منها إلى الجمال الذي يسقط على نساء هذه الأرض من سماء صافية وشمس ناعمة وقمر ينشر فضته البارعة. أشفق عليه الحكيم فقال له:

«دع زوجتك تستحمّ بالطين الأحمر فتأخذ من خصوبته وتنجب لك ولدًا. هذا تراب من جبال شاهقة جدًّا وقريبة من السماء».

لم يصدّق الرجل مقاله لكنّه فعل تحت إلحاح زوجته. قالت له:

«ماذا سنخسر؟ لمَ لا نجرب؟».

فعلت كما قال الحكيم. ذهبتْ إلى بقعة مترعة بالصلصال الأحمر القاني. خلعت ملابسها وراح زوجها يصبّ عليها الماء حتى صارت وسط بركة صغيرة من الطين. فركتْ جسدها بالكامل

فظهرت وكأنها جزء من محيطها الطينيّ الرطب. تقلّب النهار والليل حتى كان يوم وشعرت فيه بالطفل الذي في أحشائها. ركضت إلى زوجها ووجهها يطفح بالبشر.

«صدق الحكيم. صدق الحكيم».

فرح كثيرًا عندما أنجبت له طفلًا جميلًا. ظلّ يتأمله ويتحسسه حتى يصدّق ما يحدث.

«ما أجمل هذا الطفل! كيف يكون هذا؟ لا يشبهني ولا يشبه أمّه».

ثم أخذ ينظر حوله فدخله الحسد وراح يفكّر بالعودة إلى قبيلته وجلبها إلى هذه الأرض الخصبة التي تزرع الحياة في الأرحام الميتة. فكّر مجددًا:

«هذه الأرض حق لنا فهي أمّ ابني الذي يحمل دمها الأحمر في عروقه. نعم، حقٌ لقبيلتي المشتتة في الصحراء».

استعطفهم في البداية حتى يسمحوا لقبيلته بالنزول في السهل المبارك.

«دعونا ننزل في هذا السهل الواسع ونكن عونًا لكم على الطامعين».

وافق الحكيم على أن يمكثوا في بقعة محددة ولا يبرحوها. فرحوا

كثيـرًا بهـذه الأرض الفاتنـة، ثـم انتشـر الخـبر في طـول الصـحراء وعرضها، فتجمّعت القبيلة بعد عقود من التّيه والضياع في أقاصي الأرض. بعد سنوات أصبح المكان ضيّقًا عليهم فقال أحدهم:

«لمَ لا نطردهم ونأخذ السهل كلّه؟ هم ليسوا أهل سيف وقتال مثلنا».

كانـت سـيوفهم صـدئة وأقواسـهم مرتخيـة وصـفوفهم معوجّـة فخسـروا نصـف السـهل في الواقعـة الأولـى. اتّهمـوا بعضـهم بعضًـا بالتّخاذل والتّقاعس والتّواطؤ. في الواقعة الثانية كانوا مصـمّمين على طرد المعتدي لكنّ صوتهم كـان أعلى مـن هممهـم، ففقـدوا النصـف الآخـر واسـتولى الغـزاة علـى السـهل وشـتّتوا القبيلـة التـي سـكنت المكان منذ آلاف السنين.

وقفوا أمام الحكيم وكلهم عزم وتصميم على استرداد السهل من المغتصبين. شحذوا سيوفهم وهممهم ووضعوا الخطة التي تضمن لهـم النصـر في المعركـة الفاصـلة. لكـنهم قبـل أن يمضـوا في مسـعاهم وخلال وضع اللمسات الأخيرة على الخطة، انقسـموا إلـى فـريقين، والسبب هو تحديد الهدف من القتال: الفريق الأول قال إنهم ذاهبون إلـى الحـرب لقتـل أعـدائهم وإبـادتهم، والثـاني قـال إنّ الهـدف هـو طـردهم مـن السـهل. حـاول الحكـيم أن يقـرّب وجهـات النظـر لكـن

الخلاف كان أكبر من الكلمات. قال:

«كلا الأمرين يؤدي إلى النتيجة عينها». رد أحدهم من الفريق الأول:

«إن لم نقتلهم لن نأمن على حياتنا وحياة أبنائنا. سيعودون بلا شك». ارتفع صوت من الفريق الثاني:

«لن نلوّث سهلنا المبارك بدمائهم النجسة. سنكتفي بطردهم».

تمترس كل فريق خلف رأيه ولم يعد هناك فسحة للخروج من هذا الموقف الغريب. نظر إليهم الحكيم بأسى وعاد إلى خيمته التي مزقتها الريح فترنّحت أعمدتها ومالت بانتظار الهبّة الأخيرة التي ستطيح بها. نظر رجال الفريقين بوجوه بعضهم بعضًا ثم انفضّوا وعادوا إلى نسائهم وغبارهم.

شيرو[2]

راجعتْ الطبيب غير ذي مرة بخصوص هذا العارض الغريب. تغالبها نوبة العطاس في المنزل بشراسة لدقائق متواصلة ثم تتوقف. عادت من العيادة ودخلت المطبخ فتبعتها. سألتها عن تشخيص الطبيب فسردتْ ما كان. «الحساسية أمر معقد وشائع أيضًا. ليس من الضروري أن ترافقك الحساسية من الطفولة فقد تتطور بعد عمر معين. قد يكون سبب الحساسية أي شيء داخل المنزل، مثل العطر أو مواد التنظيف، وقد يكون وبر السجاد أو روب الاستحمام أو أي شيء آخر. يجب تحديد السبب وتجنبه أو التخلص منه».

بدأ الأمر بالتدريج. غيّرتْ العطر ثم ملطف الجو وصابون الجلي والمناشف والمناديل المعطرة، ثم ملابسها وأحذيتها التي تشتريها كل صيف من باريس. انتظرتْ لبعض الوقت، لكن العطاس سرعان ما داهمها بالتدفق نفسه. انتقلتْ إلى المستوى التالي؛ السجاد والستائر والكنب والخزائن. عندما لم يفدها كل هذا بدأت تفكر

(2) يقال في الإنجليزية (هيرو) وهو البطل، ويقال أيضًا في الإنجليزية المحكيّة (شيرو) وهي البطلة.

بالأشياء الأخرى مثل اللوحات المعلّقة على الجدران ومكتبتي. حاولتُ الاعتراض: كيف للكتب أن تسبّب الحساسية؟ رفعتْ رأسها بتحد. «الطبيب قال إن السبب يمكن أن يكون أي شيء».

كيف وصل الأمر إلى هذا الحدّ؟ ألا يكفي أنها تعاني من الوسواس؟ عندما يشتدّ عليها المرض لا تسمح لأحد بالاقتراب منها، وتحبس نفسها في غرفتها. تغسّل يديها بالكحول كل دقيقتين وتعقّم المنزل بالديتول. تصبح رائحته مثل رائحة المستشفيات الخاصّة. أخرج لساعات عدة حتى تهدأ ثائرة الوسواس وتطمئن نفسها قليلًا. عندما أعود تكون الحالة قد مرّت ورائحة مزيل طلاء الاظافر قد طغت على باقي الروائح؛ تجلس على الأريكة في الصّالون، تزيل الطلاء الذي بَهُتَ وكَلُحَ لونه وتضع طلاءً جديدًا طازجًا. بتّ أعرف طقوس وسواسها وأحفظها عن غيب. عندما أعترض بنعومة بالغة وأسألها «لمَ لا تذهبين إلى الصالون؟ الفتيات هناك محترفات. قد يفعلن شيئًا يعجبك». تنظر إليّ ولسان حالها يقول: كيف عرفت أنّهنّ محترفات؟ هل كنتَ هناك من قبل؟ تتململ قبل أن تجيب: «قلتُ لكَ؛ أفعل هذا للتسلية».

كلما انتقلتْ من مستوًى إلى آخر أشعر بالقلق لأنها تقترب مني أكثر. أصبح الأمر مخيفًا عندما بدأتْ بالتلويح إلى (شيرو). لطالما

اعتبرتَها أحد أفراد العائلة. لم تفرّق بينها وبين ابنتنا الصغيرة دينا. اتصلتْ بالطبيب قبل أن تقدم على خطوتها التالية. «نعم، ممكن جدا أن تكون الكلبة سبب الحساسية». الأولاد بدأوا بالنواح والبكاء والتذمر، وتحوّل المنزل إلى بيت عزاء بين نهار وعشائه. وجدتُ الفرصة سانحة حتى أتدخل وأزيد من درجة الهياج حتى ترضخ لبكائهم وتتوقف عند هذا الحد قبل أن تصل إليّ. «لن يغفروا لكِ أبدًا. الأطفال يتعلقون بحيواناتهم الأليفة أكثر مما يتعلقون بأبيهم أحيانًا. لقد قرأت في مكان ما أن الحساسية يمكن أن تختفي من تلقاء نفسها. كما قال الطبيب؛ الموضوع معقد وليس له تفسير واضح، فردّة فعل الجهاز العصبي والمناعي يمكن أن تتطور بشكل غريب وتختفي الأعراض فجأة». رأيتُ اللين والقبول قد اقترنا بنظراتها بعد أن نلتُ منها ما أرغب. توقفتُ عن الكلام حتى أعطيها فرصة للتأمل والتثبّت من موضعها في هذا الأمر الذي طال وبات كابوسًا مزعجًا.

منذ ذلك الحين وأنا أتابع حالتها الصحية وأتأكد من مطاعيمها وغذائها، وأحرص على مراجعة الطبيب البيطري كل شهرين حتّى تظلّ بصحة جيدة. استغربتْ زوجتي هذا الاهتمام المفاجئ بالكلبة التي كنتُ منذ أيام فقط أشكو من وبرها الذي انتثر على الكنب والسجّاد. كادت تسأل غير ذي مرة لكنها تتراجع في اللحظة الأخيرة.

تنظر بشك وريبة ثم ترسم ابتسامة باردة على شفتيها عندما أباغتها بنظرة حادة تستنكر استنكارها. عرفتْ أن الأمر ينطوي على مفارقة ما. كانت مثل من صعقته مفاجأة ما فشلّتْ تفكيره وأربكتْ إدراكه فسقط في مستنقع الحيرة، وظلّ يتخبّط فيها حتى تعب واستسلم لانغلاق الأمر عليه. لطالما كانت امرأة اليقين التي تثابر حتّى تصل إلى قرار الأشياء، لكنّها لم تفعل هذه المرّة لحسن الحظ.

لم أجرؤ أن أقول لها إن أمي كانت تعاني من الحالة عينها، وإنها لم تُشفَ منها إلا عندما مات أبي رحمه الله.

«صيْبة» عين

كانوا سبعة أشقّاء في دار الطّين والحجر المتهالكة التي يتقوّس سقفها أكثر وأكثر بعد كل شتاء. في الصباح تزيح لوح الخشب الذي تسدّ به القنّ لتخرج الدّجاجات ثم تفتح باب الدار؛ ليخرج الأولاد إلى الساحة ليلعبوا ويتشقلبوا بعيدًا عنها. بعد الولد الخامس تمنّتْ أن يكون لها بنت، لكن الدّاية أم صدقي كانت تبشّرها بالولد كل مرة.

«ما شاء الله! مثل تمام القمر».

كانت تقول لزوجها: «لو عندي بنت لساعدتني وآنستني وليس مثل القرود الذين لا يعرفون السكون والسكينة. طوال النهار صخب وصياح ونطّ وعراك». يبتسم الرجل ويقول ممازحًا: «جارتنا أم فادية لم تنجب سوى البنات وتتمنّى الولد. أعطيها أحد أبنائك وخذي بنتًا من بناتها».

تضرب على صدرها براحة يدها.

«مجنون أنت يا زلمة؟ أبدّل ابن بطني ببنت الجيران».

يقول مستنكرًا: «كانوا قرود قبل قليل». تردّ بتلكّؤ: «الولد فَرَجٌ لأبيه وأمه والبنت فَرَجٌ لزوجها».

يقهقه حتى تدمع عيناه وهي جالسة أمامه بوجه متكدّر وجبين مجعّد.

كانوا يتململون في الفراش بجوار بعضهم بعضًا. ينامون متسلسلين بحسب العمر. نهض من أقصى اليسار وجلس عند رأس شقيقه الأكبر جمال في أقصى اليمين. همس في أذنه: «دور مَنْ اليوم؟».

سمحت لهم أن يتناوبوا على مقايضة بيضة الدجاجة الحمراء بقبضة يد من «المخشرمة» أو «القضامة» من دكان أبي صايل. كانوا يسمعون صوت قرقرتها وهي تعدو إلى القن كي تضع بيضتها. يتحلّقون حولها ويتابعون حركاتها حتى باتوا يعرفونها جيدًا ويعرفون التوقيت الذي تخرج به البيضة إلى رحم العالم الجديد. كان دور أصغرهم هذه المرة؛ حسن ذو الأعوام الأربعة. رفع الدجاجة وأمسك البيضة الساخنة بيده الصغيرة. تراقصت عيناه وهو ينظر إليها.

صاح بحماس: «بيضة بصفارين».

لم يتكرر هذا الأمر كثيرًا لذلك كان حدثًا مفرحًا لهم وخاصة لسعيد الحظ صاحب الدور، لأنه سيحصل على مقابل أكثر من البيضة العادية. تكون بيضة الصّفارين عادة أكثر استطالة وأكبر

حجمًا. ركض إلى الدكان بسرعة وتبعه أشقّاؤه الستة. كانت البوابة الكبيرة مغلقة فقفز بخفّة إلى حافة «الخُوّيْخَة» لكنه فقد توازنه وسقط على رأسه لأنّه فضّل أن يحافظ على البيضة حتى اللحظة الأخيرة. كانت سقطة غريبة وعنيفة كسرت عنقه لأنه حاول حماية البيضة فخسر الاثنتين. عيناه جاحظتان وجسده الصغير هامد بلا حركة. قال أحدهم وهو ينظر إلى البيضة المكسورة وقد سال صفارها وبياضها على التراب:

«إنها فعلًا بصفارين».

نظر جمال إلى حسن بارتياب بينما بقية الأخوة منشغلون بالبيضة التي هُدرت بلا طائل.

«حسن.. حسن! انهض! سأتنازل عن دوري لك في الغد. لا تزعل!».

ركض إلى أمّه عندما لم يستجب. حملته بين ذراعيها وهي تصيح بأعلى صوتها. تجمّع الجيران حول الأم المفجوعة وساد الحزن في القرية على الطفل الذي راح ضحية بيضة لعينة بصفارين.

حزنوا كثيرًا على موت شقيقهم وبكوا بحرقة لفراقه. لن ينظر إليهم مجددًا بعيون متسائلة عندما ينغلق عليه أمر ما. لن يضحك

باستمتاع حتى تبان أسنانه الصغيرة. لن يختبئ وراء جمال عندما يخاف من أمر ما. لن تتدخل أمه أحيانًا حتى تردّ عنه تنمّر أشقّائه. لن يكبر معهم ويتزوج وينجب ويشيخ، بل اختصر كل هذا وسلك طريقًا مختلفًا للوصول إلى نقطة النهاية.

لم ينقضِ عام واحد حتى تكوّر بطن أمهم. نظروا إليها باستغراب. ماذا حدث؟ غاب عنهم هذا المشهد لسنوات طويلة. «أريده مثل..». بكت قبل أن تتم جملتها، فهزّ الزوج رأسه بأسى: «الله كريم». عندما سأل الأشقاء الأحدث سنًا عن هذا الأمر الذي طرأ على هيئة أمهم قال جمال مبتسمًا:

«تريد أن تعيد حسن إليكم».

استنكروا قوله في البداية ثم صدّقوه عندما هزّ رأسه بثقة. فرحوا وقفزوا في الهواء وظلّوا يسألونه كل يوم «متى سيعود حسن؟».

شعروا بالإثارة ولم يستطيعوا الانتظار ولم يستطيعوا النوم أيضًا.

«سأحكي لحسن كيف ضاع الديك، وكيف وجده أبي في الحارة»، وآخر يفكّر بصوت مرتفع:

«ماذا سنقول له عندما يسأل عن الدجاجة الحمراء؟ أمي ذبحتها حتى تتخلص من بيضها المشؤوم».

مع خيوط الفجر الأولى ينهض الصغار الأحدث سنًّا. يجلسون حول جمال ويحملقون في وجهه. ينتظرون حتى يفتح عينيه «جمال! جمال! حسن يعود اليوم؟».

كانت الولادة يسيرة ولم تكن سوى ساعة من الزمن. تقدّمت منها الدّاية أم صدقي ووجهها يكاد يفقع من شدة احمراره.

«ما شاء الله! مثل تمام القمر. بنت تردّ العين عن أولادك».

غرائب ما يحدث كل يوم

كل شيء في الغرفة يبعث على البوح؛ أريكة الجلد الحمراء، الأضواء الخافتة، الصمت، الاسترخاء، صوت الطبيب العميق، حركة أصابعه وهي تلاعب القلم بمهارة لافتة وكأنه يقدّم عرضًا للخفّة في سيرك متنقّل. كل شيء يشجّع على الثرثرة التي تبدو وكأنها حديث المرء لنفسه.

«لم ينجح شيء مما خططت له. كنت أنوي دراسة الطّبّ لكنني في النهاية درست الهندسة. لا تسألني كيف! فأنا أحد هؤلاء الذين يتمتّعون بذاكرة قصيرة قوية جدًّا، لكنني أنسى ما حدث خارج هذا المدى حتى لو كان حدثًا مهمًّا. كنت أودّ أن أؤسس شركتي الخاصة وأتوسع بها حتى يصبح لديّ مجموعة شركات مهمة، لكنني اكتفيت بالعمل في شركة معروفة بحجة اكتساب الخبرة اللازمة قبل الخوض في مجاهل «البزنس». قد أسبب لك الصداع إذا تابعت سرد تناقضات حياتي المملّة. يكفي أن أقول إنني بعد التخرّج من الجامعة عزمت على زيارة إيطاليا فقمت بالتخطيط وتجميع المعلومات اللازمة، وتحضير أدق الأمور لكنني نفضت رأسي عندما كنت أقف بالقرب

من حزام الحقائب في مطار مدريد حتى أتأكد أنني لست في روما. لا أعرف ما يحدث بالضبط لكن يبدو أنني أفقد الحماس إذا طال التفكّير بالأمر الذي أنوي القيام به فأتحول إلى غيره في اللحظة الأخيرة».

«ما زالت هذه الأشياء تحدث معك لغاية اليوم؟».

«ظننت أن هذه الحالة انتهت عندما تعرّفت على دينا. جميلة جدًّا ومرحة ومثقفة، ولدينا وجهات نظر تكاد تكون متطابقة في كثير من الأمور التي تجري من حولنا. كانت قصة حب جميلة جدًّا انتهت بالزواج ولم يحدث كما هو متوقع؛ كأن أحبها وأتزوج بأخرى».

«حدّثْني عن دينا؟ كيف التقيتما وكيف تشعر وأنت معها؟».

«التقينا في المكتبة. عندما كنت أقف بالدور عند صندوق الدفع شعرت بأحدهم يقف خلفي وعرفت أنها فتاة أو سيدة من عطرها الجميل. لا أعرف لماذا التفتُّ خلفي مع أنني متحفّظ في هذه الأمور، ولا أدقّق في وجوه الناس وأعتبرها من قلة الذّوق. كم كانت جميلة ورقيقة! يا إلهي كل هذا الجمال في مخلوق واحد. لو توزّع حسنها على عشرات السيدات لأصبحن من تلك الفئة التي تجبر الرجال على لفّ أعناقهم. ابتسمت وقالت: ما هذه الصدفة؟ لم أفهم

كلامها. عن أي شيء تتحدث. أنا حتمًا لا أعرفها من قبل حتى تكون هناك صدفة من نوع ما. أشارتْ إلى الكتاب الذي بيدي فانكشف السر. كانت تحمل الكتاب عينه. ابتسمتُ وحدّثتُ نفسي: ربما ليست مصادفة اعتباطية، ربما هي إشارة أو بداية أمر جديد. تزوجنا بعد أربعة شهور. كانت حياتي معها بجمال العبارة التي تختم بها الجدات حكايات الشتاء. كل شيء كان جميلًا حتى خُيّل لي أن السماء قد أخذت من سعادة الآخرين لتعطينا جرعة زائدة وربما أكثر مما نحتمل».

«لماذا قلت أنك ظننتَ أن الحالة التي وصفتها قد انتهت عندما تعرّفت على زوجتك؟ ألم تنتهِ فعلًا؟».

«حدث شيء ما جعلها لا ترغب في الاستمرار. لا أعرف ما هو بالتحديد. ربما شعرتْ بالملل كما شعرت حواء في الفردوس فأحبّت أن تجرّب شيئًا مختلفًا، شيئًا محرّمًا.

لم أصدق الإشارات التي باتت تؤكد صدق ظنوني. صرتُ أعرف كل شيء عن عادات الخيانة لديها. في طريق الذهاب إليه تبعث رسالة نصيّة: «حبيبي. أشعر بالملل. سأذهب إلى السوق». عندما تنتهي وفي طريق العودة إلى المنزل تبعث رسال نصية أخرى:

«حبيبي. أحبك. أحبك كثيرًا»».

«صف لي مشاعرك؟ هل تشعر بالغضب؟».

«قرأتُ خبرًا عن رجل سويدي اكتشف أن زوجته استمرت بخيانته مع أصدقائه لعشرين عامًا. كتب في رسالة الانتحار: «علينا أن نتوقف عن الحب لأننا كائنات أنانيّة لا تحب إلّا قبحها. لم أتوقع أن الحياة يمكن أن تنطوي على كل هذه الخيانة. بالرغم من كل ما حدث لست نادمًا على شيء سوى أنني أجد نفسي مضطرًّا لوضع حدٍّ لحياتي؛ لأنني في ما يبدو غير قادر على تعلم أسلوب الحياة الجديد. ربما لن يفتقدني أحد سوى كلبتي التي ستنتظر وجبتها ونزهة المساء. ستنتظر دون طائل لكنها في النهاية ستجد طريقها إلى الباب لتخرج من هذا الوضع المأزوم»».

«هل تفكر بالانتحار؟».

«لا، لست شجاعًا إلى هذا الحدّ..».

فتح عينيه -اللتين يغلقهما طوال الجلسة حتى يشعر بالمزيد من الاسترخاء- عندما شعر أن الطبيب لم يعد مركّزًا معه. اختفت تلك النظرة الجادة التي ترافقه عندما يدقق بحديث المرضى ويدوّن ملاحظاته، وحلّت مكانها نظرة تائهة وانكماش وجزع.

ظل الطبيب يتمعّن بالرسالة النصيّة الواردة من زوجته «حبيبي. أحبك. أحبك كثيرًا»، ثمّ تفطّن إلى وجود رسالة سابقة «حبيبي! أشعر بالضجر. سأذهب إلى التّسوّق».

قرية حدوديّة

عاد إلى قريته منذ سنتين، لكن لا أحد في القرية يجزم أنّه الرجل ذاته. الحرب نالت الجميع بجراحها وذكرياتها العصيّة على النسيان. عيناه ساكنتان وعظام وجهه ناتئة مثل مومياء مصرية خرجت للتو من مرقدها. يرفع حاجبيه إلى أقصى حدّ ثم ينزلان ببطء شديد. الكوابيس تلاحقه في الليل والهواجس المنهكة تعكّر مزاجه خلال النهار. أصوات تزعق في رأسه. يشعر بنفسه وكأنّه صخرة صمّاء اجتمع عليها بعض العتاة الذين راحوا يضربونها بمطارق من الحديد فترتدّ عن الصخرة من شدة الطرق. يتوقّفون للحظة، ثم ينظرون إلى بعضهم بعضًا فتغرق وجوههم في غضب هادر وتكاد عيونهم تبرق مثل عين السماء. يعاودون الطّرق بقوة أكبر، لكنّ الصّخرة تظلّ على حالها من العناد والممانعة. فقط عندما تستنزف هذه المشاهد كل طاقته ينام ليصحو على بحر من اليأس والقنوط والرغبة في البكاء. يحاول أن يفهم، يحاول أن يستوعب كل هذا الخراب، لكنّه لا يفلح، فيضرب رأسه بالحائط حتى ترتجّ كل خلايا جسده ويصبح مثل من به صرع؛ يسقط على الأرض مرتعشًا متشنّجًا. أسئلة كثيرة نشّفتْ كبده حتّى تشقق مثل أرض تاهت عنها السماء لسنوات طويلة

فعطشتْ وجفّ ضرعها حتّى اضمحلّتْ وماتتْ. كيف حدث ما حدث؟ ولماذا؟ ما الحكمة من ذلك، إن كان هناك حكمة في الأصل؟ يصحو في منتصف الليل على حلم مزعج. يجلس أمام الكوّة التي تسمح لضوء القمر بتعكير ظلام غرفته البدائيّة. ينظر إلى فضة الهلال بخشوع المتعبّدين الورعين. يمدّ يده حتى تلامس الشعاع الفضيّ فينخز إصبعه مثل طرف سيف حاد. يسيل دمه. ينظر إليه ثم يمسحه ويضغط عليه، لكنّه لا ينقطع. عندما بزغ الفجر، نظر حوله فأدرك أنه قد نام لبعض الوقت، وأدرك أيضًا أنّ الجرح الذي لا يُرى بالعين المجرّدة قد ظل ينزف حتى تبلّلتْ أرضيّة الغرفة بدماء كثيرة لها رائحة مزعجة.

الحرب دمرت دور الطين والحجر التي كانت تظللهم في الصيف وتقيهم برد الشتاء، لكنها لم تحمهم من القذائف التي انهالت عليهم من كل حدب وصوب. في لحظة واحدة انهارتْ أحلام جيل بأكمله، اختفتْ وكأنّها لم تكن. لم يبقَ منها سوى ندوب غائرة يجلّلها الألم وتكلّلها الحسرة. «يا لظلم هذا الزمن الكريه!».

لم يجد عملًا ليؤمّن قوت يومه. قالوا له:

«لمَ لا تعلّم الأولاد في المدرسة؛ تفيدهم من علمك وتستفيد في معاشك؟». تمنّع لبعض الوقت ثم قبل.

عندما دخل علينا لأول مرة وقف مبهوتًا. نظر إلى وجوهنا بتمعن وتفقّد أطرافنا. لم يسأل كيف حدث لنا ما حدث، فكل شيء قابل للتخمين الصائب وليس بحاجة لشرح؛ احترق وجه حسن بسبب انفجار قذيفة بقربه، ونائل فقد ساقه اليمنى عندما انهدم سقف الدار عليه، وأحمد فقد عقله بسبب الخوف والتوتر؛ يحرك رأسه باستمرار ويصفّق بيديه كل حين. سامر فقد ذراعه الأيسر برصاص القنّاصين، وحازم لا يرى لأنه رفض أن يتجنّد ويصبح واحدا منهم فأطفأوا عينيه، وحسني الجالس على يميني لا يستطيع الكلام بسبب الحمى التي أصابته لشرب الماء الفاسد، لكنه يصر على إخراج أصوات تشبه الغمغمة ويظنّ أنها الكلام.

الأستاذ يطيل الشرح ويأخذه الحماس أحيانًا، ويستمر بالدرس حتى بعد أن يُقرع الجرس.

«الإنسان هو وقود الحرب وليس أي شيء آخر. يجب أن تدركوا هذا الأمر جيدًا وتكرّروه أمام أبنائكم في المستقبل حتى لا يصبحوا فريسة لأطماع أمراء الحرب. الخاسر الأول هو نحن سكان القرى الحدوديّة. تتحوّل حقولنا إلى ساحات للقتال فنجوع ويموت أطفالنا، والنّاجون منهم يتحولون إلى أطفال بلا طفولة. مَن يسلم مِن عاهة الجسد يتهاوى أمام عاهة الروح».

رفعتُ يدي حتى يسمح لي بالكلام. رآني لكنه تجاهلني واستمر بحديثه.

«لماذا يفعل هذا؟ أغضبني بسبب تكبره وقلة ذوقه وتهذيبه. من المفترض أن يكون قدوة لنا وليس مثالًا سيئًا. سأخبر أمي بما فعل».

نظرتُ إلى حسني على يميني مستفسرًا عما يحدث وسبب هذا التصرف البغيض.

«ماذا تريد؟».

«أريد أن أعبّر له عن رأيي في ما يقول».

«الأستاذ أطرش، لا يسمع. خسر سمعه في الحرب. لم يقتنع بدعوتهم فخزقوا طبلتي أذنيه».

«آه.. حسنًا، لم أكن أعلم هذا. سأقترب منه حتى أوضّح له ما أريد».

«اشرح لي وأنا سأنقل له كلامك».

«لا.. لا، دعني أحاول!».

«لا تستطيع. أنت أخرس. خسرتَ لسانك في الحرب أيضًا عندما اعتدوا على أمك وأجبروكَ على النظر».

قصة قصيرة

ظل دائب التأمّل والبحث عن مواضيع مختلفة لقصصه، يحاول أن يجترح لغة متجددة وغير مطروقة، ليس على مستوى الأسلوب وحسب، وإنما يبحث عن المفردة المباغتة التي تجبر شفتيّ القارئ على الانفراج. كان يحدّث زوجته التي انشغلت بحفر حبّات الكوسا:

«الشكل، البناء، المضمون، الإحالة، الحدث، الدراما والعبارة أو اللقطة الختامية. جميعها أمور مهمة ويجب الانتباه إليها عند كتابة القصة».

تقول متأفّفة وهي تتأمل حبّة كوسا كبيرة:

«هذه لا تنفع للمحشي. قلتُ لك ألف مرة؛ انتقِ الحبّات الصغيرات فقط!».

«المواضيع متكررة، والشخصيات نمطية، والعناوين متشابهة.. لا بدّ من طريقة للخروج من هذه الدائرة والانطلاق بخط مستقيم».

«دخل جردون إلى دار جارتنا أم فتحي. صاحت بناتها -يا ويلي عليهن-، ونشفن من الخوف. إحدى البنات تركت الباب مفتوحًا

بالخطأ. الجرادين كثرت بالحيّ وصارت تستقوي على الناس. البيوت قديمة ورطبة وأغطية مناهل المجاري مكسّرة».

«أساس أي عمل إبداعي هو احترام القارئ وإدهاشه بالوقت نفسه. الاجترار ينفّر المتلقي ولا يخدم العملية الإبداعية».

«أم فتحي والبنات نمن عند الجيران. مع شقشقة الفجر، دخل أبو صابر وابنه وعلي ابن المُنجِّد الدار وحاصروا الجردون في المطبخ. كان معهم عتلة وسيخ حديد وكيس خيش. ضربه أبو صابر بالعتلة فقفز مثل الجنيّ وعض علي بساعده قبل أن يتجّه إلى الباب المفتوح ويخرج من الدار».

«القصة مثل الطّبخة يلزمها نار هادئة حتى تنضج».

«ها؟ طبخة! أي طبخة قصدك؟ يا عيني عليه! أخذوا الولد إلى المستشفى وأسعفوه وحقنوه بالتيتانوس. عضّة الجردون ملعونة».

صمتت قليلًا ثم قالت:

«لازم الأمانة تكافح الجرادين. سمعان ابن جارتنا الأرمنيّة انشلع قلبه لمّا مرّ بالقرب من الحاوية بالليل والجرادين تتزارق من أمامه وتتّجه إلى الحاوية».

كان مستغرقًا بتأملاته عندما وقفت أمامه آتية من المطبخ وعلى

وجهها علائم الامتعاض والضيق. قالت بعصبية:

«أسطوانة الغاز خلصت والطّبخة ما استوت».

كان صوت سيارة توزيع الغاز بالكاد يصل إلى مسامعهما لكنها أصغت وعرفت أنها قريبة من الدار. نظرتْ من النافذة وبحثتْ عن السيّارة. لوّحت بيدها حتى تأكدت أن السائق قد رآها.

كان يقف إلى جوار الشاب الذي دخل المطبخ حاملًا أسطوانة الغاز ثم وضعها على البلاط. أول مرة يراه في الحي. خطر له أن يجرّب معه مشهدًا ينوي أن يستخدمه في إحدى قصصه. ربما هي فرصة للتأكد من صدق الأشياء قبل كتابتها. التّجريب على طريقة العلوم وليس الآداب. حاول أن يرفع الأسطوانة ثم قال مخاطبًا الشاب الجديد وهو يتصنّع الجد:

«تبدو الأسطوانة أخفّ وزنًا من المعتاد. أمتأكد أنها ليست مغشوشة؟».

احتقن وجه الشاب الذي ارتبك واضطرب. عضلاته مفتولة ووجهه غير حليق ويبدو أنه لم يغتسل منذ أيام. تابع الرجل حديثه وقد خفّف من حدة تقاسيمه:

«سأدفع فقط خمسة دنانير ثمنًا لها بدل سبعة».

فتح الشاب عينيه على اتساعهما استنكارًا ثم وضع «المفتاح الإنجليزي» الذي يحمله بيده على صدر الرجل ودفعه بقوة فسقط أرضًا وارتطم رأسه بالبلاط. تأوّه وهو يضع يده على مؤخرة رأسه، ويحاول أن يلمّ أطرافه التي شعر بها تتبعثر في زوايا المطبخ. ركضت زوجته بعد أن سمعت صوت السقطة. وقفت مصعوقة للحظة، ثم انحنت عليه لتعينه على الوقوف. قالت بلهفة ممزوجة بالقلق والخوف:

«ماذا حدث؟ كيف وقعت؟».

«كنتُ أحاول تخيّل مشهد دراميّ في قصة قصيرة».

«يا ويلي على القصص وساعة القصص! ستقتل نفسك في يوم ما. لم تعد صغيرًا يا رجل. لم تعد صغيرًا».

حمل الشاب الغاضب الأسطوانة وخرج من الدار وهو يتمتم بشتائم مقذعة.

كبرياء ديك

انزعج وشعر بشيء من الغضب عندما ارتفعت الشمس من فوق التلة الشرقية، ولم يكن قد أفاق من نومه بعد ولم يأخذ مكانه المعتاد على سور الحظيرة. لم يَصِح ليعلنَ وصول موكب الشمس حتى ينهض الناس من نومهم ويستقبلوا يومهم الجديد. ركض مذعورًا حتى يستدرك الأمر. وقف على السور وأخذ نفسًا عميقًا ثم نظر حوله قبل أن يمدّ عنقه ويصيح. استغرب ما يحدث. كان مثل من تلقّى صفعة مباغتة أفقدته توازنه، فخرج من محيطه المنتظم إلى محيط مضطرب وغير مفهوم.

أولاد المدرسة يقفون في الطّابور الصباحيّ ويستعدّون لتحية العلم. أبو المتوكل يحرث أرضه بهمة ونشاط. سالم فتح دكانه وجلس خلف الطاولة الخشبية ويتأمّل كفتيّ الميزان. أبو حسن يسقي أشجار الزيتون بعد موجة الحر. علي ينتظر سميّة على طريق بئر الماء. الأطفال يلعبون بالتّراب في الساحة الخلفيّة. منتصر يرعى أغنامه على التلة الغربية وينفخ في مزماره فتتصاعد ألحانه الشجيّة إلى الغيمات القريبة وتدفعها للابتسام. قال الدّيك في سرّه:

«ماذا يحدث؟ كيف نهضوا وانصرفوا لأعمالهم وأنا لم أصحُ

حتى أنبّههم من نومهم؟ ماذا يعني هذا؟ لا يوجد ديك غيري في القرية».

في صباح اليوم التالي وقف مكانه واكتفى بمراقبة ما يحدث. كل واحد منهم نهض وبدأ بتجهيز نفسه للعمل. قال في نفسه:

«صياحي لا يفيد بشيء؛ أرى أنّه لا حاجة لي كما كنت أظنّ».

عاد إلى القن مهمومًا وتوقف عن أداء العمل الذي ظلّ ينجزه كل يوم دون كلل أو ملل. الدّجاجات استغربن من طباع الديك الجديدة وظننّ به المرض، خاصة أنّه لم يعد يضاجعهن بحماس كما كان يفعل في السابق. اقتربت منه الدجاجة المنقّطة وقالت له:

«سيذبحك صاحب المزرعة إن لم تعد إلى عملك».

قال بأسى:

«لكنهم لا يحتاجون صياحي حتى يفيقوا. لن يفتقدوني. لن أقوم بعمل لا يفيد أحدًا».

بعد أيام عدة قالت الصغيرة نرجس لأبيها:

«أبي! لم أسمع صياح الديك منذ أيام». قال:

«غريب. لم أنتبه لهذا الأمر. ربما أنت متوهمة».

«لا يا أبي. أنا متأكدة مما أقول».

نهض صاحب المزرعة قبل الفجر وانتظر صياح الديك الذي لم يأتِ. راقبه خلال اليومين اللاحقين وعرف أنّه ليس مريضًا؛ لأنّه كان يمشي مختالًا بين الدجاجات بعرفه الأحمر المتدلّي وألوانه الزاهية ورأسه دائب التلفّت. يباغت إحداهن ويفعل ما تفعله الدّيكة في قنّ الدجاج؛ يركبها للحظات ثم يطلق سبيلها. تندفع من تحته بسرعة وتنفض جناحيها. احتار بأمره فسأل امرأة مسنّة تعيش على طرف القرية. فتحتْ عينيها تعجّبًا وقالت:

«الدّيك الذي لا يصيح نذير شؤم. يجب أن تذبحه وتخلص من شرّه».

ركضت الدجاجة المنقّطة عندما شاهدت صاحب المزرعة يحمل السكّين، وينظر إلى الديك. قالتْ:

«سيذبحك. صِحْ حتى يعفو عنك!».

«لن أصيح. لن أصيح. ماذا يبقى من الديك إذا خسر كبرياءه؟».

كفّارة

كانت تقف هناك وتتأمل المشهد من حولها بجزع شديد. الضياع، التشتّت، البكاء، الألم، الفقد ومفردات أخرى أنكى وأشد وقعًا حاصرت القرية المنسيّة على خاصرة النيل. خرجتْ هذه البقعة من إيقاع الزمن وظلّت تعيش طفولتها البدائية بعيدًا عن العالم. نقية وطاهرة مثل يوسف بن يعقوب. كل الكائنات ما زالت تحتفظ برائحة الولادة، ملمسها وشكلها وهيئتها لم تزل على فطرتها الأولى. السماء تتودّد للناس بزرقتها الناعمة، والنيل ينساب برقة وعذوبة أجمل فتيات القرية التي لم تعرف فراش الرجل بعد، ولم يُغلقْ عليها باب الكوخ لتشعر بيديه في الظلمة تمتد إلى مناطق لطالما أوصتها أمها حتى لا يقترب أحد منها. كانت العرّافة وسيلة اتصالهم بكل شيء يمسّ حياتهم؛ المطر، الضباب، الحصاد، فيضان النيل والمرض. تعوّدوا أن يعرضوا عليها ما عزموا عليه من أمور، فإن وافقت مضوا به وإلا ترددوا وأجّلوا إلى حين آخر. يلجأون إليها في كل شيء؛ إذا تأخرتْ إحداهن بالحَبَل، وإذا كُسرت يد أحد الصبية، وإذا مرضتْ البهيمة، وإذا تأخر المطر وإذا لم يقدر الرجل على معاشرة زوجته، وإذا.. وإذا..

في عقدها السادس، بوجهٍ فيه استطالة ظاهرة وأسنان متزاحمة وعينين حمراوين تستقرّان في محجرين عميقين مثل كهفين مظلمين ومخيفين. تدخّن من غليونها الطويل وتنفث الدخان ببطء وتلذذ. ثدياها ارتخيا ونحلا حتى باتا مثل سيقان أطفال القرية وهم يلعبون عراة على ضفة النيل اللينة. تقوّس ظهرها من سنوات قليلة فقط. ربما بسبب قامتها الطويلة، وربما بداعي الحكمة القائلة بالبقاء قريبًا من الأرض حتى تسمعَ وجيبها فتنذركَ من شرّ القادم قبل وصوله.

لم يحدث هذا منذ سنوات بعيدة حتى نسي الناس أمره بالكامل. لم تكن هناك مؤشرات تدلّل على الغضب الذي اندفع وأغرق كل شيء، وجرف كل شيء وكأنّه مارد يكنّس ضفة النهر من الحصى الدقيقة والتفاصيل التافهة. البيوت الطينيّة تفسّختْ وذابتْ في شهية الماء الذي تخلّى عن شفافيته وصار بلون أسمال نهر عجوز. الأشجار وقفت على أطراف أصابعها محاولة رفع أنفها فوق مستوى الماء، لكنها في الوقت نفسه أرادت أن تظلّ متشبّثة بالأرض. الحوائج البسيطة التي اقتنوها طافت على وجه الماء، والبهائم استدلّتْ من خلال غريزتها على بقعة مرتفعة أكثر من غيرها ووقفت عليها.

طفل يحضن جروه الصغير ويرفض أن يتخلّى عنه. الأب يشير

إليه بوجه عابس حتى يصعد إلى الطوف المزدحم. الأم تستعطفه بدموعها الغزيرة التي لم تظهر وسط هذا البلل والغرق. المياه ترتفع والطفل ظل على عناده. تقفز الأم إلى المياه العميقة حتى تفسح المجال لجرو طفلها.

الطّاعنون بالسنّ كانوا أول الضحايا. غافلهم الماء الصاخب مع ساعات الفجر الأولى وأخذهم بصمت إلى مستقرهم الأخير. الرجال حملوا الأطفال على أكتافهم ومشوا بهم حتى وصلوا إلى الأرض الجافة.

بعد أن تلقّوا الصفعة واستقرّ وجه الماء، بدأوا ينظرون بوجوه بعضهم بعضًا ويسألون عن فلان وفلان. عندما جاء دور العرّافة، قال أحدهم: «رأيتها تقف عند النخلة العاقر وتشير إلى طفلة تعلّقت بقرن الجاموسة».

قال آخر: «كانت تجوس الماء بعصا طويلة وتحاول تسلق الصخرة البيضاء التي لم يصل إليها الفيضان». نطق الفتى الذي ظلّ يخدمها وينظّف كوخها وعيناه تحدّقان في اللاشيء:

«قفزتْ إلى الماء المتلاطم وجرفها التيار. لا بدّ أن السقطة قد قتلتها. كانت تقول: عندما لا يبقى لي معنى على هذه الضفّة سأذهب بقدميّ إلى الضفّة الأخرى».

ومن لم يعانقه شوق الحياة[3]

تنهض مبكرًا قبل الجميع، تفتح النافذة المطلّة على الحديقة، تأخذ نفسًا عميقًا، وتملأ صدرها بهواء الصباح المنعش، تتسع عيناها لتمتصّ الألوان التي نضجتْ وأصبحتْ جاهزة للقطاف. ترمي كسل الصباح وتنطلق إلى المطبخ بخفّة وكأنها تمضي إلى موعد مع حبيب قديم ما زال له قبلة غير مدفوعة من حساب سابق. تستمع لوقع أقدامها الحافية على أرضية «الباركيه» بفرح وإثارة وكأن فيروز تصدح بأغنية جديدة. تحاول أن تتذكّر الحلم الذي شاغلها قبل أن تفتح عينيها. تبتسم ابتسامة فارهة على الرغم من كونها لا تتذكر كل ملامحه. الهرّة ترفع رأسها ببطء، ثم تعود بسرعة إلى كسلها وتغمض عينيها الواسعتين. الفجر يتمدّد على استحياء وكأنه يعطي فسحة من الوقت للناس حتى يستروا عوراتهم التي انكشفت على الضوء الخافت الذي راح يقوى شيئًا فشيئًا.

تغلي بعض الماء لتصنع القهوة كما تحب؛ سادة برغوة ظاهرة ترسم وجوهًا وأشكالًا مسليّة. ترفض الرائحة أن تبقى حبيسة الشقة

(3) من قصيدة معروفة للشّابي.

فتتسرّب إلى مطلع الدرج. يقف الجار العازب خلف الباب ليتنشّق رائحة جسدها الرطب ويسمع وقع أقدامها. تشرب القهوة باستمتاع بالغ وتتصفّح حسابها على «الفيس بوك» و «الإنستغرام». تقرأ خبرًا طريفًا ينتزع منها ابتسامة شهيّة. تمرّ سيارة من الشارع الخلفي، فيصل صوت فيروز إلى مسامعها. تتذكر الأغنية وتشعر بحنين متدفّق لسماعها؛ «وحدن بيبقوا مثل زهر البيلسان». طيور الحديقة انتبهت لحركتها وبدأت صباحها بالزقزقة. تقف على «البرندا» فترى طائرًا بألوان زاهية. تستغرق به وكأنه قادم من أحلام بعيدة. تبحث عن «الموبايل» حتى تلتقط صورة للطائر البديع. تنظر إلى الشجرة حيث كان يقف قبل لحظات فلا تجده.

«أين ذهب؟ ربما يعود غدًا. ما أجمله! لم أرَ شيئًا كهذا في حياتي».

اقتربت الساعة من السادسة صباحًا. تركض إلى غرفتها قبل أن يفيقوا، والقطّة تراقبها وهي تغلق الباب. تجلس في الكرسي المدولب الذي لم تغادرْه منذ سنوات، تغطّي شعرها بمنديل أسود وتظلّ محدّقة في ساعة الحائط.

ارتباك

كان أربعينيًّا في أواسط عقده الخامس، طويلًا ونحيلًا بشعر أسود فاحم يردّه للخلف بعد أن يبلّه بالماء. نظراته ودودة وملابسه قديمة لكنّها نظيفة ومرتبة. لمحها وهي تقف قبالة واجهة أحد المحلّات المعروفة رفقة سيدة أخرى بدت وكأنها صديقتها. عرفها من «الشّابو» الأسود الذي تعتمره بفرح المراهقات ورزانة المسنّات. خصلات شعرها الكستنائي تنسدل على كتفيها برقة نهر جفّتْ مياهه لسنوات طويلة ثم عاد إلى الجريان بشوق مكبوت. وجهها بنعومة ثدي للتو تكوّر وانبثق من الجسد الذي دفعه بعنف فظهر على العالم وكأنّه تلة جامحة وسط سهل فسيح. تنفرج شفتاها كل حين فتنفتح طاقة على عالم فريد من السحر والغنج والنداوة. قميص أبيض شفّاف يكشف ساعدين طريين شربا حتّى ارتويا من الليونة والرشاقة، وبنطال أسود ضيق يلتصق بفخذيها ومؤخرتها فيكشف أسرار النحت اليوناني الذي أذهل العالم بخطوطه الرشيقة وزواياه المحيّرة. وقف أمامهما بابتسامة عريضة، وتوجّه بالحديث إلى السيدة التي تضع القبّعة:

«ساندرا؟».

ارتبكتْ وهي تنظر إليه بتفحّص:

«عفوًا. لستُ ساندرا. ولا أظنّ أنّا التقينا من قبل». نظرتْ إلى مرافقتها وهمّتا بالمغادرة. استوقفهما بحركة من يده:

«ربّما أنني أخطأت باسمك، لكنني متأكد أننا التقينا. أنت تعزفين على الكمان بشكل جميل جدًّا، كمان أحمر يتكئ على كتفك الأيسر مثل حبيبة مالت برأسها على كتف حبيبها فصارا ملتصقين ببعضهما بعضًا كالتصاق اللحم بالعظم. تتدفّق من كمانك ألحان بديعة، تطلق مشاعر دفينة راكدة في قاع النفس من عشرات السنين».

ابتسمت بلين وقالت:

«للأسف، لستُ من تظن. فشلتْ كل محاولات أمي لتعليمي العزف. أتّمنى لو أنني أجيد العزف على الكمان. ستسعد أمي كثيرًا لو أنني كذلك. هي في السماء الآن، لكنها تسمعني جيدًا».

شدتّها صديقتها من يدها، وهرولتْ بها بعيدًا عنه قبل أن ينفرط عقد دموعها ويفسد يومهما الذي كانتا تستمعان به قبل ظهور هذا الرجل الغريب.

في طريق العودة، فكّر بسبب هذا الإنكار الشديد الذي أبدته تلك السيدة. «ربّما شعرت بالإحراج لوجود صديقتها، هي متزوجة الآن

فقد رأيت خاتمًا في بنصرها الأيسر. لا تريد أن تتعقّد حياتها بسبب ماض بعيد. وربّما كان شيئًا آخر انغلق عليّ». وصل إلى أسفل الدرج الذي يعدّ درجاته كل ليلة؛ مئة وثمانين درجة. يتناهى إلى مسامعه صوت أنغام عود ابن الأرملة «أم خالد»، ألحان دافئة في ليلة مقمرة. يتوقف للحظة ليلتقط أنفاسه فيشمّ رائحة «قلّاية البندورة» قادمة من دار «أبو حلمي». يحاول كتمان سعاله لكنه ينفلت منه رغمًا عنه. يتعالى صوت «أم حلمي» مخاطبة ابنها:

«حلمي! تفقّد الدرج! يمكن أبوك رجع من المصنع».

«هذا ليس أبي. هذه سعلة المهبول زكي».

صعد إلى غرفته الرطبة بسرعة، وأغلق الباب على نفسه، وجلس في العتمة، واستسلم لحلم يقظة آخر.

جرعة زائدة

لم تكن «البسطة» التي أتكسّب منها تدرّ ما يكفيني ويكفي عائلتي التي يزداد عدد أفرادها كل عامين فردًا جديدًا. الأيام الممطرة والحملات التي تشنّها الأمانة على أصحاب «البسطات» تزيد من تعقيد الأمور. عندما تضيق الأحوال ولا تجد زوجتي ما يسد جوع أطفالنا تقنعني بالتّخلّي عن علبة السجائر لذاك اليوم حتى تشتري الخبز. أحيانًا أنظر إلى من حولي وأتساءل عن سبب هذا التّفاوت الفادح بين الناس. سيّارات فارهة وزجاج ملوّن ينظرون من خلفه باستغراب وفضول، وكأنّهم في حديقة الحيوان ويحدّقون إلى نوع منقرض من الثعالب أو الذئاب. بالمقابل هناك من يقف على زاوية الشارع ويبول على نفسه لأنّه فقد الإحساس بأبسط الأشياء. فقد الشعور بالبول وهو يخرج منه ويشكّل بركة صغيرة بين قدميه.

أظلّ أبحث عن أحد يشبهني من بين المارّة. عندما يعييني الأمر أنظر إلى صاحب «البسطة» المجاورة فأرى نفسي وكأنني أنظر في مرآة لامعة تعكس صورتي بشكل واضح. وجه كالح وقاتم، لحية مهملة وأسنان صفراء ونظرة سوداويّة وقد تتطور إلى عدائية غير مبررة.

فَرَدتُ «البسطة» على الرصيف في موضعه المعتاد في جبل الحسين. كان نهارًا جميلًا وشمسًا هانئة. زحمة الناس تضاعفت بسبب الطقس الجميل الذي ظلّل الجميع بلطفه وعنايته. طلبت من صاحب أقرب «بسطة» أن ينتبه لأغراضي حتى أذهب لقضاء حاجتي. في الشوارع الخلفية بناية مهجورة تعوّدت الذهاب إليها كلما أردت التّبوّل. كنت أتهيأ للوقوف في الزاوية التي اخترتها لهذا الأمر عندما سمعت من يتحدث في الجهة الأخرى من البناية. وصل الحديث واضحًا بسبب الهدوء الذي سيطر على المكان.

«قفوا هنا! لا تنظروا إلينا! انظروا إلى الجهة الأخرى».

كان صوتَ امرأة. صمتتْ قليلًا ثمّ تابعتْ: «هيّا! أسرعْ.. قبل أن يأتيَ أحدهم!». كانت لحظاتِ صمتٍ، ثم أجفلني صوت صفعة قويّة.

«ما هذا؟ ماذا يحدث؟ من هؤلاء؟».

تسلّلتُ بخفة إلى مصدر الصّوت. اختلستُ نظرة سريعة إليهم؛ خمسة أطفال يقفون متجاورين وينظرون إلى الحائط، رجلٌ رثّ الهيئة يقف أمام امرأة تمسح شفتيها الداميتين.

«هذا لا يكفي. اضربني بقبضة يدك على وجهي وبطني. اضربْ بقوة. يجب أن تكون الكدمات واضحة حتّى يقتنعوا». انفلتت منها «آهٍ» مباغتة بعد أن لكمها على وجهها. التفتَ إليها أصغرُ أطفالها

فنهرته حتّى ينظر إلى الحائط. سقطتْ على الأرض وهي تتلوّى من الألم، لكنّها تمالكتْ نفسها بسرعة. أعانها على النُّهوض.

«ساعدني للوصول إليهم، وانتظرني في الخارج حتى أنتهي ونعود إلى المنزل معًا».

اتكأت عليه وساقت أطفالها الخمسة أمامها وغادروا المكان وهي تئنّ وتتأوّه. «لم أفهم شيئًا. هذا رجل وزوجته، وهؤلاء أطفالهم على الأغلب. لماذا طلبت منه أن يضربها بعنف؟ أمر محيّر. سأتبعهم وأرى إلى أين يذهبون».

حافظتُ على مسافة آمنة بيني وبينهم. كانت تتوقف كل حين وتحني جذعها وتعضّ على شفتها. الأطفال يتحلّقون حولها ويشدّون ثوبها حتى تطمئنهم بنظرة أو ابتسامة دافئة. توقّفوا أمام بناية قديمة. انتظر الرجل عند المدخل وارتقت المرأة وأطفالها الدرجَ. دخلتْ من باب كبير عليه قارمة مكتوب عليها: «منظمة حقوق الإنسان».

«لا يوجد غير تفسير واحد لهذا الأمر. منظمة حقوق الإنسان تدفع تعويضات للنساء اللواتي يتعرضن للضرب من قبل أزواجهن. لا شيء يجبرها على هذا الأمر البغيض سوى النقود التي تنفقها على أبنائها. أعرف زوجها جيدًا. أقصد أنني أعرف من هم على شاكلته؛

يجلسون طوال النهار بلا عمل وإذا وجد عملًا لا يمكث فيه أكثر من أسبوع أو أسبوعين».

نسيتُ أمرهم والتهيتُ بعملي حتى كان يوم بعد شهر أو أكثر قليلًا. مرّوا من أمام «بسطتي» وعرفت أنّهم متّجهون إلى البناية المهجورة. قرّرتُ أن أتبعهم لكنني تأخرتُ حتى وجدتُ من ينتبه لأغراضي لحين عودتي. مضيتُ إلى حيث كانوا في المرّة السابقة. كان صوته عاليًّا جدًا ومفجوعًا «سميرة .. سميرة .. أفيقي.. انهضي!». ركضتُ حتى وصلتُ إليهم. كان يهزّها بقوة وهي ملقاة على الأرض وفاقدة الوعي. الأطفال نظروا إليها باستغراب وبكوا بصمت مرير. عيناها جامدتان والدّم يسيل من طرف فمها. دم غزير، أسود وقانٍ.

كلمة أخيرة

كانت دارهم التي تمتطي ظهر الجبل في شارع «أبو نوّاس» الأكبر والأوسع بين باقي الدّور المحيطة بها. ساحة داخلية واسعة وغرف عدة متراصة، وصالون واسع لاستقبال الضيوف وسور يفصلها عن محيطها ويمنح أهل الدار بعض الخصوصيّة التي باتت ترفًا لا لزوم له. كانت اثني عشر يومًا رهيبة لم تسقط أحداثها من الذاكرة، بل تشبّثتْ بها وغرست مخالبها في وجدان طري وأخضر من السهل أن تترك فيه ندوبًا بارزة لا تمحوها سنوات طويلة من راحة البال.

«ابتعدوا عن الشبابيك! لا ترفعوا رؤوسكم! أطفئوا الأنوار. لا تتحدثوا وانصتوا لما يحدث وراء السور!».

بعد يومين أو ثلاثة أصبحوا يميّزون بين أصوات الكلاشنكوف والقنابل وجنزير الدبابات والآر بي جي والمدفعية والهاون. تجمّع الجيران في الدار الكبيرة التي كانت في منتصف المسافة بين سفحي الجبل الذي شهد قتال شوارع وتراشقًا بمختلف أنواع النيران. باتوا يعرفون تفاصيل الحدث قبل أن يحدث. السفح الغربي يبدأ الرماية مع ساعات الفجر الأولى، دقائق ويأتيهم الردّ من السفح الشرقيّ.

الدّبّابات تجوب الشوارع القريبة وقت الظهيرة وأصوات فرقعة «الآر بي جي» والغبار يتصاعد ويخفي تحته من سقط ومن ما زال واقفًا. ترتفع أصوات بلهجات غريبة من خلف السور.

«استسلم يا عميل!». يرد عليه صوت بلهجة محلّيّة:

«استسلم يا عميل!».

تراشق الاتهامات بالخيانة والعمالة واستخدام عبارات جاهزة ومتداولة يصبّها طرف على آخر وتظل مثل كرة يتقاذفها بلا كلل ولدان ضجران في ظهيرة لاهبة.

«الغرف المتراصة توفر حماية أفضل من الدور البسيطة المكوّنة من غرفتين أو ثلاثة. النساء والأطفال يأخذون الغرفة الغربية لأنها محميّة من ثلاث جهات. الرجال يجلسون في الصالون. تذكّروا أن أكثر نقطة محميّة هي تحت الدرج».

الرجال واجمون، وينفثون سحبًا كثيفة من الدخان، وبعضهم يحرّكون حبّات السُّبْحَة بعصبية. الخوف والتّرقب باديان على وجوه النساء، يلهجن بالدعاء كل حين: «يا رب! يا رب!». الأولاد يلعبون في مساحة محددة. ينظرون إلى وجوه أمهاتهم بريبة، لم يفهموا سبب هذا التحوّل المفاجئ والتّجهّم الذي لا ينتهي.

كان رشيد ذو الثمانية أعوام يراقب ما يحدث باهتمام بالغ. يتنقّل بين الصالون والغرفة الغربيّة ثم يتسلل بخفة إلى السطح ويراقب ما يحدث في الشوارع القريبة. تقول له أمه:

«اجلس في الظل يا رشيد حتى لا تشعر بالعطش! لا يوجد لدينا ماء للشرب وصيف أيلول حار. الله يفكّ ضيقنا!».

كانت ساحة دار أم ثائرة مكشوفة من السطح. راقبها رشيد مرات عدة لكنّه لم يلمح أي حركة ولم يسمع أي صوت. نادى على ثائرة ولم يتلقَ منها الردّ الذي كان يأتيه سريعًا، فيدعوها للعب، وتلبّي طلبه.

«أمي! ما في ناس في دار جارتنا أم ثائرة».

اصفرّ وجه الأم جزعًا:

«الله يحميها من كل شر!».

ظل يفكر بالأمر ويلحّ عليه حتى وجد نفسه في ساحة دار الأرملة. تدلّى بجسمه الصغير من السور ثم قفز بخفة إلى الأرض. كان هناك فسحة يسيرة تفصل السور عن سنسلة دار أم ثائرة. تجاوزها بسهولة بسبب تهدّم حجارتها ثم تجاوز الساحة ودخل الدار بحذر شديد.

«ثائرة! ثائرة!».

وصل إليه صوتها ضعيفًا وخائفًا.

«نحن هنا تحت الدّرج». كانتا تعبتين وشاحبتين وخائفتين. قالت الأم:

«لم نشرب منذ يومين. سنموت عطشًا يا رشيد». نظر إلى ثائرة فوجدها مصفرّة ونظراتها تائهة.

انتهت الأحداث المؤلمة وخرج النّاس إلى الشوارع في اليوم الثالث عشر ليجدوا الجثث المتفحّمة والآليات المدمّرة على جانبي الطرق. بحثوا عن رشيد الذي اختفى في اليوم الحادي عشر. سألوا عنه الجيران وفتّشوا عنه بين القتلى. لم يكن بينهم. أمّه كادت تفقد عقلها بسبب القلق والتّوتّر. أين ذهب الصّبيّ؟ أهل الحيّ انتفضوا دفعة واحدة دون اتّفاق للبحث عنه. كانت ثائرة نقطة البداية. عمّ الحزن في الجبل بأكمله عندما وجدوه بين السّور والسنسلة جثة هامدة وبيده مطرة ماء صغيرة.

لم يعرفوا مصدر الرصاصة الطائشة التي قتلته من أي سفح جاءت؛ الشرقي أم الغربي.

فهرس المحتويات

ليل طويل.. حياة قصيرة 7
مواطن 2050 11
أخضر ناصع البياض 14
الببغاء 19
حالة 25
الموظف الذي فقد رائحته 30
تعهد خطي 34
حرب داحس والغبراء الثانية 41
خُرُجْ تين 49
شيرو 54
«صيْبة» عين 59
غرائب ما يحدث كل يوم 64
قرية حدوديّة 70
قصة قصيرة 75
كبرياء ديك 79
كفّارة 83
ومن لم يعانقه شوق الحياة 87

ارتباك 89
جرعة زائدة 92
كلمة أخيرة 97

مجدي دعيبس.. سيرة ذاتية

روائيّ وقاصٌّ أردني من مواليد عام 1968. حاصل على بكالوريوس هندسة الاتّصالات وماجستير علوم وهندسة «النانوتكنولوجي» من جامعة العلوم والتكنولوجيا الأردنية.

صدرت روايته الأولى «الوزر المالح» عام 2018 عن المؤسسة العربية للدراسات والنشر، وحصلت على جائزة كتارا للرواية العربية في دورتها الخامسة عام 2019 عن فئة الروايات المنشورة، وتُرجِمَتْ إلى اللغة الإنجليزيّة.

صدر له أيضًا عن المؤسسة العربية للدراسات والنشر رواية «حكايات الدّرج»، ومجموعة قصصية بدعم من وزارة الثقافة بعنوان «بيادق الضالّين» عام 2019. وعن الآن ناشرون وموزعون صدرت روايته الثالثة «أجراس القبّار» عام 2020، وصدرت له مسرحية بعنوان «الدّهليز» عن دار أمجد للنشر والتوزيع بدعم من أمانة عمان الكبرى.

«قفوا هنا! لا تنظروا إلينا! انظروا إلى الجهة الأخرى!».

كان صوت امرأة. صمتتْ قليلًا ثمّ تابعتْ: «هيّا! أسرعْ.. قبل أن يأتي أحدهم!». كانت لحظات صمت ثم أجفلني صوت صفعة قوية.

«ما هذا؟ ماذا يحدث؟ من هؤلاء؟».

تسلّلتُ بخفة إلى مصدر الصوت. اختلستُ نظرة سريعة إليهم. خمسة أطفال يقفون متجاورين وينظرون إلى الحائط. رجل رثّ الهيئة يقف أمام امرأة تمسح شفتيها الداميتين.

«هذا لا يكفي. اضربني بقبضة يدك على وجهي وبطني! اضرب بقوة! يجب أن تكون الكدمات واضحة حتّى يقتنعوا». انفلتتْ منها آه مباغتة بعد أن لكمها على وجهها. التفتَ إليها أصغر أطفالها فنهرته حتى ينظر إلى الحائط. سقطتْ على الأرض وهي تتلوّى من الألم، لكنّها تمالكتْ نفسها بسرعة. أعانها على النهوض.

«ساعدني للوصول إليهم! وانتظرني في الخارج حتى أنتهي ونعود إلى المنزل معًا!».

اتكأت عليه وساقت أطفالها الخمسة أمامها وغادروا المكان وهي تئنّ وتتأوّه. «لم أفهم شيئًا. هذا رجل وزوجته، وهؤلاء أطفالهم على الأغلب. لماذا طلبت منه أن يضربها بعنف؟ أمر محيّر. سأتبعهم وأرى إلى أين يذهبون».

الآن ناشرون وموزعون

الأردن، عمان، شارع الملكة رانيا، مجمع المفلح التجاري (87)، ط1

Email: alaan.publish@gmail.com

alaan_publishing.jo

alaan.publishing

القدس عربية

Available at amazon

9 789923 134207